الفصل الأول: القلم البليغ

يرى الأديب العربي المصري الدكتور زكي مبارك أن رجال القلم أعرف خلق الله بما يشتجر في الصدور من آلام وآمال ... وأن الأدباء هم أقدر الناس على عصيان الأهواء ويقول: «ألا ترون كيف نحارب منافعنا في سبيل النزاهة الأدبية؟

نحن نبخل بالحكم على لقطة شعرية أو نثرية حين نراها بعيدة عن الجهد المستطاب، مع أن الحكم على قطعة شعرية أو نثرية لا يقدم ولا يؤخر في سياسة البلاد ... إنَّ الأمور لن تنصلح إلا يوم تصبح المقاليد بأيدي رجال القلم البليغ ... ورسالة القلم البليغ هي خلق ذوق الحياة».

ويرى أن على صاحب القلم أن يحرر عقله وقلبه وروحه من جميع الأوهام والأباطيل؛ ومعنى ذلك أنه يجب أن ينظر في جميع المعاني نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقوه ولو كانوا من أعاظم الرجال.

وعلى صاحب القلم توطين النفس على الغربة الأبدية ... والخلوة إلى القلب، وهذه الخلوة هي السبب في تفوق الأدباء القدماء ... وهي ننسى أن الأنبياء لم يتلقوا الوحي إلا في أعقاب الخلوات إلى القلوب؟

يقول:

«لقد خرج المتنبي هاربًا من مصر في ليلة عيد، فكم ألوف من الدنانير أنفقت في مصر في تعليم أبنائها حكمة المتنبي؟

ومات محمد عبده بعلة أورثته إياها عقوق معاصريه، فكم ألوف من النفوس حاولت التشرف بأنها رأته قبل أن يموت».

ويعلي من مكانة الأديب في الجهاد ويرى أن الفضل يرجع إلى الأدب العربي في تأريث البطولة العربية، وكذلك حظ جميع الآداب في الشعوب العربية. ويستشهد برأيه في أنه حين تزاور الرؤساء الإنجليز والأمريكان بعد انتصار الحلفاء في الحرب الماضية لم يجدوا عبارة تفصح عن الألفة بين الأمتين أفضل من العبارة التي تقول بأن لغة شكسبير هي الرباط الوثيق بين الإنجليز والأمريكان.

ويرى أن على القلم البليغ أن يكتب دائمًا ولا ينقطع عن الكتابة في السلم أو الحرب، وعلى صاحب القلم أن يقبل الاحتراق باللهب المقدس؛ لهب الأدب ويقول:

«نحن وحدنا الأحياء، ونحن وحدنا الخالدون».

«إن كلمة تُضم إلى كلمة في ذكاء ولوذعية أشرف وأعظم وأنفع من كنوز تضاف إلى كنوز، وأن جود الله بالفكر والروح على من يصطفيهم من عباده لهو أطيب الهبات وأكرم الأرزاق ... أقسم الله بالقلم ولم يقسم بالمال، ونحن بالله مؤمنون».

ويرى أنه لا حياة للأدب إن لم تكن لأهله عقيدة أدبية يرحب صاحبها بجميع المتاعب في سبيل الأدب الصحيح، وأن على الكاتب أن ينظر في جميع الأشياء، وجميع المعاني نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقونا.

ومع اهتمامه بأهمية الدراسة فإنه يطالبنا بفتح ما أغلق من القلوب والنفوس، وأن على الأديب أن يكون صادقًا؛ لأن الأدب الصادق هو الذي يحمي صاحبه من بريق الزيف والبهرج ويقنعه بأن المجد الحق لا يكون إلا في ظلال الشهامة والصدق وشرف القول والفعل، وطهارة القلب والوجدان.

ويرى زكي مبارك أن الأدب يستفيد من الخير والشر على السواء، كما يستفيد من السلم والحرب ...

ويقول أيضًا: «إن الحياة هي كتاب الأديب؛ فالأدب يجب أن يكون من وحي الحياة، وإنه من الضروري أن نعيش الحياة حتى نكتب آيات الوجود، لا أن نترك الحقيقة ونبحث عنها في الخيال، ونهرب من العالم ونلجأ إلى القلم ...».

ويقول: «إنَّ الأديب الذي يتهيب الحياة ويخاف مجاهلها هو أديب رخو ليس أهلًا لمجد القلم ولا شرف البيان ... وإن الألم أساس النفع وأساس النجاح ومصدر العظمة بشرط ألا يكون نوعًا من القلق العليل».

ويكرر القول في كتاباته: إنَّ رسالة الأديب هي خلق ذوق الحياة ... ويقول: «لكل وطن روح ... وروح هذا الوطن هو رسالة القلم البليغ».

والآن مع زكي مبارك والقلم البليغ.

***

الحديد في دم الأديب[١]

في أخبار الأدب الفرنسي أن أديبًا كان يكتب كل يوم قصة ويرسلها إلى إحدى الجرائد، وكان يتمنى في كل صباح أن تنشر له قصة فيأخذ عليها أجرًا ينتفع به في معاشه، ولكن الجريدة التي كان يرسل إليها أقاصيصه لم تنشر له شيئًا، وكذلك كان يستقبل كل صباح بأمل خائب وإحساس مطعون[٢].

واتفق له يومًا أن يتأمل أحوال البيت الذي يعيش فيه فوقف على أخبار طفل يتيم دمعت له عيناه؛ فكتب فيه أقصوصة سماها «اليتيم» وأرسلها إلى تلك الجريدة التي أهملت كل ما كتب، وكان يخشى أن تنال تلك الأقصوصة ما نالت أخواتها السوالف من الإهمال، ثم فوجئ بظهور تلك الأقصوصة في صباح اليوم التالي، وما كاد ينتهي من مراجعة الجريدة حتى جاءه خطاب فيه صك بمبلغ من المال مكافأة على قصته، وفي الخطاب فوق هذا كلمات من طيب الثناء، وأراد ذلك الأديب أن يحاسب نفسه وأن يقارن بين ما كتب بالأمس وما كتب اليوم، فرأى أن أقاصيص الأمس كانت من وحي الخيال، أما قصة اليوم فكانت من وحي الحياة، وهذا هو السر فيما ظفرت به من كريم القبول[٣].

ولكم بعد هذا أن تراجعوا حظوظ من عرفتم من الأدباء، فسترون أن أبلغهم أثرًا في أنفس الجماهير، وأقدرهم على أسر القلوب وغزو العقول،

---

(١) فصل من كتاب: أكواب الشهد والعلقم.

(٢) لم ينشر هذا الكتاب للآن وهو يعد حاليًا للطبع.

(٣) نشرت هذه الكلمة في كتاب البدائع الجزء الثاني صفحة ٢٠٥.

وامتلاك النفوس، هم الأدباء الذين ابتلتهم الحياة بصنوف الأرزاء، وعرفوا كيف تقسو الدنيا وكيف تلين، أولئك هم الذين يكتبون وفي كل حرف سر ظاهر أو غرض دفين.

أما الأدباء المدللون الذين حبتهم الدنيا بألوان من الترف والنعيم فهم ينظمون ويكتبون وكأنهم يعلبون، وليس للألاعيب في عالم الأدب بقاء.

الحياة هي كتاب الأديب، ومن حظه أن يعرف البؤس والشقاء وأن يدرك كيف يكون الضجر والاكتئاب، وأن يشهد بعينيه كيف يرتفع السفلة والأغبياء، وكيف يطيش الحظ الأهوج فيظلل بجناحيه رءوس الممرورين من أهل الجاه المزيف والمجد المكذوب.

إنَّ أراجيف المرجفين وأكاذيب المضللين، وتنسك الماجنين وتعالم الجاهلين، واستنسار البغاث، واستذآب الكلاب، واستبسال الجبناء، كل أولئك مما يؤرث نيران الحقد في صدر الأديب الموهوب ويحوله إلى طاغية غشوم يبطش بأهل الكذب والرياء والنفاق.

والأديب الذي يتهيب الحياة ويخاف مجاهلها هو أديب رخو ضعيف ليس أهلًا لمجد القلم ولا شرف البيان.

الأدب الصادق ليس إلا حومة قتال، ولكن أي قتال؟ قتال في سبيل الحق والخير والجمال. والحياة لم تكن يومًا دار سلام؛ إنما السلام في المقابر، فمن شاء أن يستريح فليمت، أما الأحياء فقد كتب عليهم أن يناضلوا ويقاتلوا ويصاولوا ما بقي فيهم عرق ينبض وقلب يثور، فإن جنحوا للسلم فقد استسلموا إلى سكرات الموت، وبئس المصير!

أتفهمون هذا يا طلاب الأدب الفحل الذي يحطم الأسداد ويهدم الحصون؟

خذوا وحيكم من الحياة يا طلاب الأدب، وتذكروا دائمًا أن وقود عقولكم وقلوبكم لا يكون إلا من الألم ومن الصدق، فإن أعوزكم هذان العنصران فلن تصلوا إلى شيء، وهل يصل الوادعون والكاذبون إلى حظ أفضل من حظ السيد فلان؟ إنه حظ لا أشتريه بخمسة قروش وإن بهركم ما يملك من الجاه ومن المال!

الأدب الصادق هو الذي يحمي صاحبه من بريق الزيف والبهرج، ويصونه من الخضوع لأرباب الألقاب؛ ويقنعه بأن المجد الحق لا يكون إلا في ظلال الشهامة والصدق، وشرف القول والفعل، وطهارة القلب والوجدان؛ وأديب واحد بهذه الخلال أنفع لأمته ووطنه من ألوف العبيد الذين يلبسون ثياب السادة وهم أذلاء، ويتشدقون بأخبار الفضائل وهم في أنفسهم من أهل البغي والفسوق.

إنَّ الأديب الحق هو الذي ينقل قراءه من ضلال إلى هدى؛ أو من هدى إلى ضلال هو الذي يبدد ما في أنفس قرائه من الأمن والسكون، ويشغلهم بعواطفهم ونوازعهم وأهوائهم، ويقيم الحرب بينهم وبين ما في قلوبهم من أصول الشر والخير والغدر والوفاء؛ لأن الأمن والسكون لم يكونا إلا من صور الجمود، ولو شئت لقلت من صور الموت، وإن غضب الفيلسوف فلان.

أكتب هذا وقد سئل فلان عني: فشاء له أدبه أن يقول: «إن مذهب زكي مبارك في الأدب سيفسد عشرة أجيال» وأنت يا هذا ما شأنك حتى

تعاديني في سبيل ما سأفسد من الأجيال؟ إنك لرجل ميت، والعداوة بيني وبينك هي العداوة بين الموت والحياة، إن كان يستطيع الموت أن يعادي الحياة.

أنا الذي سيفسد عشرة أجيال؟! إذن ما بالكم تسرقون كل ما أكتب وكل ما أقول، إنكم لتنهبون مني كل شيء حتى الألفاظ والتعابير، ولو شئت لدللت الناس على آثاري فيما تكتبون وما تقولون وسترون إن امتدت الخصومة بيني وبينكم كيف أسقيكم كأس الهلاك وكيف أوردكم موارد الحتف، وإن اعتصمتم بشاهقات البروج.

إنَّ الذين يعادونني لا يعرفون عواقب ما يصنعون، إنهم لا يعرفون أن العداوات تمد دمي بفيض من قسوة الحديد، إنهم يجهلون أن الهدوء يفسد أمعائي ويحوجني إلى زيارة الطبيب، فأوغلوا ما شئتم في البغضاء فإن لي في ذلك مغانم كثيرة تصل على أيديكم بلا جزاء ولا ثواب.

وأنتم، يا قرائي؛ ما رأيكم؟ أترونني من الأشرار؟ وكيف وما كنت في حياتي باغيًا ولا عاديًا، لقد ابتدأت حياتي الأدبية بأناشيد الحب والجمال، ولو خلاني الناس وشأني لعشت بلبلًا وديعًا لا يسمعون منه غير أنغام الحنين، ولكن لؤم اللئام حولني إلى إعصار عاصف يمحق ما يصادف من اليابس والأخضر، والطير والحيوان، ولا أذكر الإنسان فما سمعت بأخباره في هذا الزمان!

أمَّا بعد فلله نعمة في كل شيء، ومن أجل نعمه على الأديب أن يخلق له من المكاره ما يوقظ حسه، ويرهف وجدانه، ويقهره على حمل السيف.

وقد جربت ذلك في نفسي وفي قلمي، وهل من القليل أن يشعر الرجل بأن حياته هول يقاسيه الخصوم في اليقظة والمنام؟

انظروا فسترون أنْ «فلانًا» الذي ذكرته في هذا المقال سيفزع من أجله ألف فلان، فليس لي عدو واحد وإنما هم ألوف، وقد يكون أبعدهم عن البال هو الذي سيعاني أخطر الأهوال بعد قراءة هذا المقال فلا تجزع يا فلان فلست أعنيك، إنما أعني رجلًا غيرك يتجلد ويتصبر في بعض الأحيان.

فإن لم يكن بد من التخصيص -لتهدئة الرأي العام في صفوف الأعداء- فأنا أصرح بأنني لا أعني إلا ذلك الرجل الجليل الذي زعم لمحدثيه أن مذهب زكي مبارك في الأدب سيفسد عشرة أجيال، فإن لم ينزجر فسنرجع إليه باسمه الصريح (وفي هذا بلاغ لقوم يعقلون).

٢٥ يولية سنة (١٩٣٥)

***

بين فصول الكتاب وآيات الوجود

عزيزي القارئ:

كان المرحوم زكي مبارك يطالب الكاتب بأن يكتب من وحي الحياة؛ أي من الحقيقة لا من الخيال، فلما كان مراسلًا لجريدة البلاغ من باريس فماذا كتب.

يقول: «إنه حين ذهب إلى باريس للحصول على الدكتوراة عن أطروحته «النثر في الفني في القرن الرابع الهجري» كان يعيش على دنانير يرسلها إليه صاحب جريدة البلاغ عن مقالاته من باريس».

يقول: «لم يكن أمامي إلا مسلك واحد هو الاندماج المطلق في باريس لأحدث قراء البلاغ بأحاديث منتزعة من الحياة الواقعة في باريس، وكان لا بد من معاقرة الحياة في باريس لأنجح في مراسلة البلاغ ... وهدتني الفطرة إلى قضاء أوقات الفراغ في الملاهي والمراقص والقهوات.

كنت أزرع باريس بقدمي لأخلق لمقالاتي جوًّا من الحقيقة لا من الخيال».

وحول نفس الموضوع صفحة ١٢٠ على صفحات كتابه «ذكريات باريس» نقرأ تحت عنوان:

بين فصول الكتاب وآيات الوجود

صديقي ...

تسألني كيف كانت أعمالي كثيرة ومعقدة، وتطلب بيان ذلك التعقيد؟ اسمع إذن هذه القصة ثم استنبط منها ما تشاء:

في مساء ١٤ يولية الماضي، بعد أن تناولت العشاء، مضيت إلى شاطئ السين أنتظر الألعاب النارية مع آلاف المنتظرين. ثم بدا لي فجأة أني شهدت هذا الاحتفال في الأعوام الماضية، وأنه لن يكون فيه جديد، وأن من الخير أن أعود فأكتب صحيفة أو صحيفتين لأتقدم قليلًا في العمل الذي جئت له، ثم انحدرت إلى المنزل الذي أقيم فيه غير حافل بالحياة الضاحكة التي تحشر الناس في صعيد واحد ليرى بعضهم بعضًا، وليجددوا ما بلي من آمالهم وأحلامهم حين يرون الجمال يزحف بجيوشه الجرارة ليفتح ما أغلق من نزوات القلوب ونزعات النفوس، وليروا أخيرًا الأسهم النارية تعمل في الجو المطلق بعض ما تعمل العيون النواعس في أفئدة الشعراء[1].

عدت إلى المنزل، وأقبلت على مكتبي، ثم أدنيت الدواة والقلم والقرطاس؛ ولكني لم أكد أضع أول جملة حتى سمعت دويَّ الأسهم النارية يخترق الفضاء، وسمعت تهليل المهللين وصياح الصائحين، والضحكات جميعًا من قوية تنبئ عن رجولة، ورقيقة متقطعة تكشف عن أنوثة، ودارت بي الغرفة فلم أدر ماذا أكتب، وعزَّ عليَّ أن تنهزم إرادتي

(١) من كتاب «ذكريات باريس» ص١٢٠.

وأن أخرج ثانية للاشتراك في الاحتفال، وأخذت أُرهف العزيمة لأكتب شيئًا يعوض تلك الخسارة الفادحة التي مُنيت بها حين تركت أهل باريس يمرحون ويلعبون وتموج بهم لجج الحياة لأحبس نفسي طائعًا في غرفة مغلقة الأبواب بين ما أعجم واستبهم من مناظر الكتب والدفاتر والمحابر والأقلام والمذكرات.

ولكني لم أكتب شيئًا!

ثم خلعت ثيابي وألقيت بنفسي على السرير ذاهلًا حائر اللب ترميني قذائف التفكير من هنا وهناك، وتجمعت في رأسي أسباب الثورة الفكرية التي تهاجمني وأهاجمها من حين إلى حين، وبدأت أمطر نفسي وأمطر العالم بوابل من الأسئلة المحرجة التي تقف أمامها النفس الإنسانية حيرى مولهة لا تدري كيف تجيب:

أنا تركت العالم يموج على شواطئ السين، ولكن لماذا؟

لأقرأ كتابًا يتحدث عن العالم؟ ... هذا حمق وسفه. كيف أترك الحقيقة ثم أبحث عنها في ألفاف الخيال! ألأكتب بحثًا يشرح بعض حقائق العالم؟ كيف! وأنا أهرب من العالم لألجأ إلى القلم والكتاب والمصباح!

وانطلقتُ أفكر في أمثالي من الذين يتسامون إلى شرح حقائق الحياة نواميس الوجود وهم أسرى في منازلهم يخشون إذا هموا بمشاهدة العالم أن ينالهم الابتذال. فكم من عالم مفكر -وتلك دعوى قديمة- يجلس في عقر بيته ليضع الشرائع للناس، وهو لا يعلم شيئًا عن غرائز الناس. في حين أن التشريع ليس إرادة فردية تؤيد بالأحكام العرفية، وإنما هو تنظيم وتهذيب للغرائز والميول والأهواء. وكم من فيلسوف -وتلك أيضًا دعوى

قديمة- لا يعرف من الدنيا غير الكتب ولا يعرف من أهلها غير تراجم المؤلفين، وهو مع ذلك يرى نفسه أهلًا لوضع الحقائق الباقية لسياسة الأمم والشعوب!

ثم ماذا؟

ثم تكون هذه النكبة الاجتماعية التي درج عليها الناس منذ أجيال، والتي تقضي بأن الجمهور لا يحترم الرجل الذي يشاركه في أسباب دنياه، وإنما يتصور العظمة محبوسة في أقفاص المكاتب والمعاهد والجامعات. وقديمًا شك الناس في نبوة الأنبياء؛ لأنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كما حدثنا القرآن.

أتجرحك يا صديقي هذه الملاحظات؟

معذرة إليك، فأنا رجل ثائر عنيف، وسأظل في ثورتي إلى أن أنتصر في حرب ما أمقت من نفاق التقاليد. وأستطيع أن أؤكد لك أن كثيرًا من الأصنام التي تعبد في مصر والشرق ستحطم عما قريب، وسينشأ في مصر والشرق جيل جديد يبني أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات، وستهدم صروح العظمة التي تبنى على أساس التوقر والتحفظ، وخلق أسباب التبجيل، وفرض الاحترام بالأساليب الممجوجة التي تخلَّى عنها الغرب وداسها بقدميه يوم رغب في شرف الحرية والإخاء والمساواة، ويوم فضل الحقيقة المرة على الباطل المعسول؛ متى أشهد مصرعك يا عهد النفاق!

ثم كان مساء الأحد الماضي حيث يجري سباق السباحة في السنين، وخرجت باريس برجالها ونسائها وشبابها وكهولها تحيي عظمة البساطة

والخفة والسذاجة والرشاقة في أجسام السابحين، وخرجت أنا أيضًا هذه المرة بعد أن وضعت الكتب والمذكرات في الصوان وأغلقته إغلاقًا محكمًا ووضعت المفتاح تحت البساط؛ لئلا يهجم عليَّ كتاب فلسفة مثلًا فيحول بيني وبين الخروج!

يا لله! هذا شباب باريس يطوق السين كما يطوق العقد جيد الحسناء. وهذا زحام مطبق لم يترك لمثلي موضع قدم، والناس ما بين شاب رشيق الحركة يتسلق الأشجار، وفتاة مترفة ترفع مرآتها لتنعكس عليها مناظر السابحين، وشاعر يرى ويشهد أسراب الحسان لتتم له أسباب الإبداع، وفيلسوف يرقب تطور الحياة الإنسانية وجهًا لوجه عن طريق المشاهدة لا كما يفعل أدعياء الفلسفة الذين ينزحون من بئر الغفلة والنسيان والذهول والسين؟

السين! قد تحول يا صديقي إلى أمواج من النور البنفسجي الجذاب، حتى حسبته قلبًا يخفق بالمنى، أو مخدعًا يتناجى فيه عاشقان، وحسب السين ليلة من هذه الليالي في كل عام ليتيه على أنهار العالم جمعاء، وليظفر بمثل ما كان يظفر به النيل قديمًا يوم كانت تزف فيه إليه في كل عام فتاة هيفاء، والحسن في كل عصر خير ما يهدى وخير ما ينال.

وأنا؟ ... أتريد الصدق؟ لم تكن معي مرآة أرى في بياضها مشاهد السابحين، ولم أنشط إلى تسلق الأشجار لأرى ما لا يراه الواقفون، ولم أجد مكانًا على الرصيف أشهد فيه مناظر السباق، وإنما اكتفيت بمشاهدة العالم الباريسي، وعدت مع ذلك إلى المنزل قبل أن ينتهي الاحتفال. أتدري لماذا؟ لأقرأ كتاب سبنسر في علم الاجتماع!

فإن شئت أن تعرف كيف كانت أعمالي كثيرة ومعقدة فاذكر أنها ليست إلا حيرة مطبقة بين فصول الكتاب ومشاهد الوجود؟

باريس في ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٩

من كتاب «ذكريات باريس» ص١٢٥

***

obeikandl.com

الألم والحياة[١]

قرأت في «البلاغ» فقرة مترجمة جاء فيها أن شارلي شابلن قال:

«إنَّ بعض الناس يدهشون لإصراري على الظهور في رواياتي بمظهر الشريد البائس المتألم، ولكن أليس في الألم كل معنى الجمال؟».

فتذكرت أنني قرأت لأناتول فرانس منذ أعوام كلمة نفيسة عن الألم وفضله على الحياة، فعدت إليه فرأيته يقول ما ترجمته بتصرف يسير:

«بين الوهم الدائم الذي يحيط بنا يبدو شيء واحد محقق: ذلك هو الألم، وهو حجر الزاوية في الحياة، وفوقه قام بناء الإنسانية، وكل شيء ما عداه وهم، وهو وحده اليقين ... إننا نعرف أننا نتألم ولا نعرف شيئًا غير ذلك، وهنالك القاعدة التي بنى عليها الإنسان كل شيء. نعم فوق صخور الألم أقام الإنسان صرح الحب والشجاعة والبطولة والرحمة والفضائل والقوانين، ولو انعدم الألم لاسودت تلك الجوانب الجميلة من الحياة وسقطت في هاوية الفناء. وعند الإنسانية شعور مظلم بضرورة الألم، ومن أجل ذلك وضعت الحزن بين فضائل الأخيار والقديسين ... فما أسعد الذين يتألمون وما أشقى السعداء!، وقد عاش الإنجيل ألفي سنة في العالم؛ لأنه زفر بصرخة الألم وأشاد بأحزان البائسين».

وقبل شارلي شابلن وأناتول فرانس كان ألفريد دي ميسيه يقول:

«الألم هو الذي يصيرنا عظماء».

---

(١) ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣١ من على صفحات كتاب «البدائع» الجزء الثاني ص١٨.

فهل في ذلك شيء من الحق؟

الألم أساس النفع وأساس النجاح ومصدر العظمة، على شرط ألا يكون نوعًا من القلق العليل، فهناك ناس يستريحون إلى الحزن المبهم ويرون فيه لونًا من السلوة والعزاء، ومثل هذا الألم لا يصل بالمتألمين إلى ربح جزيل.

الألم النافع هو ألم الرجال، والرجل قد يتألم ولكنه لا يصرخ، وكم في العالم من رجال محزونين ولكنهم لا يفارقون الابتسام وهؤلاء يدركون معاني الحياة ويعرفون طعم السراء والضراء، وتكويهم المحن والخطوب؛ ولكنهم يستكبرون على الجزع والشكاية، ويرون الناس أصغر وأهون من أن ينتظر منهم الكريم كلمة رثاء.

الألم المشروع هو الألم في الحب؛ لأنه نوع من العطف والحنان؛ وهو كذلك نوع من الإشفاق على الجمال؛ والجمال أشقى الموجودات في العالم مهما استطال أهله ونشروا ألوية العتو والكبرياء، فالعاشق يحزن ويتألم، ولكنه في ألمه وحزنه قوي متين.

أما الألم في سبيل المجد فرذيلة، وليس للرجل أن يتألم حين يفوته الحظ اللائق به، ولكن عليه أن يحقد؛ وهذا هو الموطن الذي أرى الحقد فيه فضيلة، وحاشى للقارئ أن يظن أني أدعو إلى الحقد السافل الذي يتسلح به الجبناء والأوغاد، إنما أدعو إلى الحقد الشريف الذي يفرض على أصحابه أن يستعدوا لكبت خصومهم في ميادين الجد والنضال والكفاح. وهل هناك حظ أطيب وأشرف من أن تشعر خصمك بأنك أقوى منه نفسًا وأشد مراسًا وأصلب عودًا؟ إن ذلك لهو الفوز المبين.

رسالة الأديب[1]

رسالة الأديب - كلام قد ينفع - الخلوة إلى القلب

في أحد الأعداد الأخيرة من مجلة الجمهور البيروتية كتب الأستاذ إلياس أبو شبكة كلمة في السؤال عما ترك شوقي وجبران من التوجيهات النافعة في السياسة القومية، وهو ينتظر وهو ينتظر أن يجود الجيل الجديد بأدباء قادرين على خلق تلك التوجيهات.

وفي العدد الأخير من مجلة المصور القاهرية كتب الأستاذ فكري أباظة يقول: إنَّ قصيدة ستالينجراد للشاعر علي محمود طه هزته هزًّا؛ وهو يرجو أن يعود الشعراء المصريون إلى التغني بالقومية والوطنية، ولا سيما العقاد ومطران.

وأقول: إن من رسالة الأديب أن يتجه إلى آمال وطنه من حين إلى حين، أو في كل حين، وفقًا لما يجيش بصدره من نوازع وميول، ولكن من العقوق للأديب أن نجحد فضله إذا لم يجعل الآمال الوطنية قِبلته في جميع الأحايين.

والقول الفصل في هذه القضية أن رسالة الأديب هي خلق ذوق الحياة، فمن الواجب أن تتجه مراميه جميعًا إلى ذلك الخلق في أي صورة، وعلى أيِّ شكل. وقد قلت مرات: إن الأديب الحق هو الذي يستطيع بقلمه أن ينقلك من ضلال إلى هُدى أو من هُدى إلى ضلال. والمهم عندي أن يقدر الأديب على خلق الفتن الروحية والذوقية والعقلية، بحيث تخرج من

---

(١) مجلة الرسالة: العدد (٥٠٤) أول مارس سنة (١٩٤٣).

صحبته بمحصول جديد من القلق أو الاطمئنان. ولو كانت غاية الأدب أن يرسم لنا خطط المستقبل لوجب أن نترك الشعراء القدماء؛ لأن أدبهم يعجز عن توجيه الجيل الجديد، ولأنه من هذه الناحية أعجز من أدب شوقي وأدب جبران.

أشعار المعري لا تنفع القومية بشيء، القومية في مدلولها الحديث، ولو شئت لقلت إنها كانت أذى على قومية ذلك الزمان؛ لأن منحاها يتجه إلى الهدم لا إلى البناء، ولكن قراءة أشعار المعري تنفع في تقوية الذاتية، وتروض القارئ على الاعتداد بالنفس، وتثيره على الرياء الاجتماعي. وثمرات هذا الأدب لا تقل قيمة عن ثمرات الأدب الذي يرينا كيف نواجه مشكلات العصر الجديد.

رسالة الأديب هي خلق ذوق الحياة، أو هي نصر الحياة على الموت، والقليل من هذه الرسالة في هذا الاتجاه يصنع الأعاجيب في إحياء الممالك والشعوب.

***

كلام قد ينفع

صديقي ...

لم يبق بدٌّ من توجيه نظرك إلى أشياء خفيتْ عليك عددًا من السنين، واستوجبت أن أزهد في لقائك، برغم ما بيني وبينك من وداد عجزت عن محوه الأيام. هي أشياء تملني منك، فتصرفني عنك، وتجعل محضرك أثقل من الحديث المعاد.

أنت يا صديقي مغرم بالسؤال عما لا يعنيك من شئون الناس، ولا سيما الموظفين، كأنك تتوهم أن أعمالي تنحصر في استقصاء الدقائق والخفايا من أحوال الزملاء، وكأن الحياة عندي وعندك قيلٌ وقال، وبحثٌ وسؤال، مع أنك تعرف جيدًا أني لم أسألك يومًا عن شأن من شئونك، إلا أن تتلطف أنت فتستشيرني في بعض المعضلات من أحوال دنياك، ثم تكون النتيجة أن أنسى ما أفضيت به إليَّ بعد لحظات قصار أو طوال.

يجب أن تكون شواغلنا الحقيقية مقصورة على ما ينفع، ولا نفع في استقصاء أحوال الناس، إلا في الحدود المتصلة بالمعاملات، ثم يمضي كل إلى سبيله المرسوم في طلب الرزق أو المجد بلا التفات إلى الفضول الذي لا يتشهاه غير صغار العقول.

ومن أثقل ما يضجرني منك حرصك في كل لقاء على تذكيري بالتقصير في حقِّ نفسي من الوجهة الدنيوية، وأنا أبغض من يبصرني بأمور دنياي؛ لأني رسمت لحياتي كلها خطة لا أحيد عنها في أي وقت، وهي

الظفر بأكبر نصيب من أنصبة الفكر والرأي. وهذا هو السبب في أن تكون أوقاتي كلها مشغولة برياضيات ذهنية وعقلية وروحية، وهو أيضًا السبب في طول الخلوة إلى القلم، بحيث لا يمضي يوم يجوز نعته بالفراغ، ولو كان من أيام الأعياد.

والغريب أنك لا تساجلني فيما أكتب، ولا تحاول تنبيهي إلى ما يغيب عني، وإنما تسأل دائمًا عما سأجني من الأدب، وتحاول بالتصريح أو التلميح أن تفهمني أن كل شيء ما خلا المال ضياع في ضياع!

وأنا لا أزهد في المال ولا أدعو إلى الزهد فيه، ولكني أفهم أن الغنى بالنسبة إلى أهل العلم والأدب غنى محدود، وينبغي أن يظل كذلك، لتبقي لأهل العلم والأدب أشواق إلى المعاني، وليتحرروا من أسر الغنى الفضفاض، فله شواغل تحد من وثبات العقول، وسبحات الأرواح، وخطرات القلوب.

ليس لي بصديق من يختار لي غير ما اخترت لنفسي، وأنت تخذلني تخذيلًا فظيعًا كلما لقيتني؛ لأنك تحاول تهوين نعمة الله في قلبي، وأنا أعتقد أني من الذين منَّ الله عليهم بنعمة التوفيق، فله الحمد وعليه الثناء.

أتريد الحق؟

الحق أنك تحاول الدفاع عن كسلك بأسلوب ملفوف، فأنت تهون من شأن الجهاد الأدبي بحجة أنه قليل الربح، وتلك حجة واهية، فللجهاد الأدبي أرباح أيسرها الشعور بقيمة الجهاد، ولو كان لي أملٌ في تقويمك لذكرتك للمرة الأولى بعد الألف بأن حياتك صارت غاية في الهُزال،

وأنك لا تستحق اللقمة التي تأكل، ولا الخرقة التي تلبس، وما أنفقه أهلك وأنفقته الدولة في تعليمك وتثقيفك قد ضاع إلى آخر الزمان.

عندك ألقاب علمية، وبيدك وظيفة رسمية؛ ولكنك على نفسك وعلى الوطن بلاء.

كيف يجوز أن تمر أيام وأسابيع وشهور وأعوم ولا نقرأ لك بحثًا جيدًا أو غير جيد، ولا نسمع من أخبارك غير البراعة في تسقُّط أخبار الناس، ولا نلقاك إلا في القهوة إن أردنا نلقاك، ولا نأخذ عنك غير المعلومات السخيفة عن الدرجات والترقيات؟ وكيف يكون كل همك أن تسألني عما بيني وبين الرؤساء من صلات، ولا يخطر في بالك أن تسألني عما بيني وبين الله من صلات؟

وتعيب عليَّ أن أقضي أيامي في نضال وصيال، فما الذي غنمت أنت من قضاء دهرك في التلطف والتظرف، بمصانعة هذا ومجاملة ذاك؟

ما تذكرت ماضيك إلا تحسرتُ وتفجعت، فقد كنت فتى مرجو المخايل، وكان جهادك في طلب العلم مضرب الأمثال، فكيف وقع حجر الخمود فوق رأسك فشطره شطرين؛ شطرًا للنميمة وشطرًا للاغتياب؟

وأنا مع هذا أحبك وأحفظ عهدك، ولكن كيف أتقي شرك، يا شرير؟

إن لقاءك يؤذيني أعنف الإيذاء؛ لأنه يريبني في العدل، فما يجوز لمن يكون في مثل حالك من تعطيل مواهبه الأساسية أن يجد القوت.

ارتع والعب، فإنَّ الرزق لا يفوت السوائم المهملات!

صديقي!

لا تفكر في لقائي بعد اليوم، إلا أن تغير ما بنفسك، فترجع فتى كالذي عهدت، فتى يعتمد على الله لا على الناس، ويؤمن بأن الله لا يرفع أحدًا بغير حق؛ لأنه يضع الموازين في جميع الشئون، بحيث يمكن القول بأن المصادفة لا مكان لها في الوجود.

أتراني ألقاك مع الرجاء لا مع الخوف؟

أنا أخاف من لقائك لأنك تخذلني وتعوقني، أيها العالم الجبان!

لطف الله بي وبك، وهداني وهداك!

***

obeikandl.com

الخلوة إلى القلب

لا أدري كيف صرت إلى ما صرت إليه من الزهد في لقاء الناس، أو لعلني أدري؛ فقد صرت لا أفكر في لقاء صاحب أو صديق إلا إذا وثقت بأن لقاءه يوحي إلى القلب أشياء.

وهل يتسع الوقت لمسامرة من لا يوحون بشيء؟

إن الحياة أقصر من أن نضيعها في مصاحبة الموسمين بالغباوة والجهل.

الصديق الذي أجالسه فيثير في نفسي الشوق إلى امتشاق القلم لتدوين بعض المعاني هو الصديق، وأنا أرحب بلقائه في كل حين.

والأصل في الصديق أن يكون على مثال القلب، فتحاوره كما تحاور قلبك بلا تحفظ ولا احتراس، عندئذ ينفتح القلب عن مكنونات يبدعها الحوار اللطيف.

ومن أدبي في حياتي أن أحرص أشد الحرص على أصدقائي، وأن أتعصب لهم بحق وبغير حق، وأن أنتهز الفرص للحديث عنهم ولو في صورة الملام، وكان ذلك لأني أؤمن بأن من حق من وثقوا بنا فصادفونا أن نبذل في البر بهم ما نملك من كلمة الخير، وهي كلمة لا يضن بها غير المفطورين على الشح اللئيم.

والخلوة إلى القلب، أو إلى الصديق الذي بمنزلة القلب، هي فرصة الوحي الأدبي، وهذه الخلوة كانت السبب الأصيل في تفوق الأدباء القدماء.

وهل ننسى أن الأنبياء لم يتلقوا الوحي إلا في أعقاب الخلوات إلى القلوب؟

أقول هذا لأشرح السبب في قلة الشعر بجميع البلاد في هذا العهد، فالشعر لا يكون إلا بالغناء، ولا يتيسر الغناء مع الضجيج.

إنَّ أحلام القلوب لا تجمع بسهولة، وكيف وهي في شرود الأوابد؟ إن للقلب أعماقًا أبعد غورًا من أعماق المحيط، وستكتشف جميع المجاهيل قبل أن تكتشف سرائر القلوب.

يجب على الكاتب أن يخلو إلى قلبه لحظات من كل يوم، عساه يعرف بعض الملامح من سريرة القلب والروح.

لا يفرح برؤية الناس والأنهار والبحار والمزارع والبساتين إلا من يعجز عن رؤية هذه الخلائق فوق ساحة القلب.

فمتى نكون من أرباب القلوب؟

متى؟ ثم متى؟

إن انتظارنا سيطول!

***

obeikandl.com

بين الحب والإعجاب

الصلة بين الكاتب والقارئ منوَّعة الألوان، فهنالك كاتب يحبه القارئ، وكاتب يعجب به القارئ، وكاتب يظفر بالحب والإعجاب.

ومَرَدُّ الأمر إلى ذاتية الكاتب، فإن كان أدبه أدب وجدان فهو جدير بالحب، وإن كان أدبه أدب ذكاء فهو خليق بالإعجاب، وإن جمع بين الوجدان والذكاء فهو الكاتب المنشود، وهو الذاتية الكاملة فيما يرى أصحاب الأذواق وأرباب العقول.

والظاهر أن الأدب الحق يأخذ زاده من الذكاء ومن الوجدان، فإن خلا من أحد هذين الزادين فهو عُرضة للضعف، وإن خلا منهما معًا فهو إلى فناء.

وقد يظن بعض الناس أن الذكاء والوجدان من المواهب الثوابت، وأن من حق الموهوبين أن يتكلموا حين يريدون. وهذا توهم، فما يستطيع أعظم عقل أو أكبر قلب أن يجود بالمعاني في كل وقت، وإنما هي بوارق تصدر عن العقل والقلب من حين إلى أحايين.

ومع هذا فمن المؤكد عندي أن العقول تُراض وأن القلوب تُراض، ولكن كيف؟

هنالك أغذية لا يعرفها مؤتمر الأغذية، وهي التأملات في دقائق الفروق بين الحيوات الحسية والمعنوية، وهي فروق لطاف لا يدركها غير قلب الأديب وعقل الفيلسوف.

والظاهر أيضًا أنه لا بد من التزود بما سميته «الحاسة الفنية» وهي حاسة لا توهب لجميع الناس، وإنما يختص الله بها من يشاء، وإلا فكيف جاز أن يكون النوابغ في كل أمة آحادًا وإن زاد أبناؤها على عشرات الملايين؟

إن الوجود كتابٌ مفتوح، ولكنه لا يُقرأ بسهولة، ولا يجتلي أسراره غيرُ أفراد، فكيف نصل إلى لُبابه المكنون؟

أعتقد أن مسئوليتنا نحو أنفسنا خطيرة، فنحن نضيع فرص التأمل، ونحن نَتهيَّبُ ما يُغضب المجتمع، ونحن نجعل السلامة شارة النصر المُبين.

الأصل في الأدب أن يكون ثورة عقلية وذوقية، والأصل في طبيعة الأديب أن تكون قوة موحية، قوة تُعطي وتمنح، وعنها تصدر أقباس الفكر وألوان الخيال.

وليس معنى هذا أن يعيش الأديب عيش المحادة للمجتمع، فالمحادة المقصودة عناد بغيض، ولكن معناه أن يستقل الأديب عن الموحيات الخارجية، موحيات الظروف، بصورة تجعل أدبه من وحي الخلود.

ويظن ناسٌ أن الكاتب المحبوب هو الذي يحدث قراءه عما يألفون، وهذا خطأ في خطأ وإنما الكاتب المحبوب هو الذي يمضي بقرائه إلى شعاب من الفكر والروح والوجدان لا يصلون إليها بغير دليل. فمن غفلة بعض الكاتبين أن يأنسوا إلى العامية الفكرية؛ عامية الرأي المبذول بغير حساب على اختلاف عهود التاريخ. وما قيمة الكاتب إن لم يُشعر القارئ

بأنه هداه إلى أفق جديد من آفاق العقل والروح، ولو بلمحة سانحة في أثناء الحديث؟

يجب أن تكون للكاتب ذاتية عقلية وروحية، عساه يخلق في القارئ وجدانًا يحس به حقائق الوجود، فليس بكاتب ولا مفكر من يكون محصوله نفاضة من أضابير زهد فيها العنكبوت.

والأدب عند كل أمة وفي كل عهد سمو وعلاء، أو هو التعبير الصحيح عن المطامح الكريمة في السمو والعلاء، ولهذا كان من أساسه الأصيلة أن يكون طريف الفكرة جميل الأسلوب.

وليس المراد من طرافة الفكرة أن تكون رأيًا لم يسمع بمثله الناس، لا، وإنما المراد أن يكون تعبير الكاتب عنها تعبيرًا ذاتيًا يجعلها من الطريف، بحيث لو تحدث عنها غيره لعُدَّت من الحديث المعاد.

أمَّا جمال الأسلوب فله عندي مقياس يخالف المعروف من المقاييس، والكاتب صاحب الأسلوب في نظري هو الكاتب الذي يشغلك بنفسك حين يوجه إليك الحديث، ومعنى هذا أن تبرز الفكرة بصورة قهارة ينسى فيها القارئ أنه في صحبة كاتب، ولا يدرك إلا أنه يواجه معضلات يعترك فيها العقل والوجدان. وهذه البراعة لا تتفق للكاتب ولا تنصاع إليه إلا بعد أن يكون إمامًا في لغته، إمامة صحيحة كونتها الرياضات الطوال على الأداء المبين بالأسلوب الرشيق.

***

أيضًا عن الإعجاب المتبادل بين الكاتب والقارئ يكتب زكي مبارك على صفحات كتابه: «ذكريات باريس»[1] موجهًا كلامه للأديب الكبير الأستاذ محمد السباعي تحت عنوان: «الأدب والحياة» فيقول:

إني أردت أن أوجه إليك هذه الرسالة لأبين لك أن القارئ والكاتب قد يتوافقان وقد يتنافران، فلا تنتظر أن يوافقك القراء جميعًا، أو يخالفوك جميعًا؛ لأنك وإياهم تستمدون حماستكم من الحياة. وأنت رجل تدل آثارك الأدبية على أنك فهمت كيف يطيب العيش، وعرفت أن الأديب يجب أن تكون له حوادث يرويها قبل أن يُشْغَل برواية حوادث الناس. فهل تظن أن الناس جميعًا يجب أن يستطيبوا ما تكتب في حين لم يقدر لهم جميعًا أن يعيشوا كما عشت، وأن يفهموا كيف يكون نعيم الحواس!

على أنه لو كان يُنتظر من كل كاتب أن يرضي جميع القراء لتقصفت مئات الأقلام. والعقل يفرض علينا أن نطمئن إلى أن قراءنا لهم ألوف مؤلفة من الأهواء والميول والأذواق.

فإن أزعجك أن ينصرف عنك قارئ لأنه يواجه الحياة بذوق غير ذوقك، فثق أن هناك من يُقبل عليك وينتظر؛ لأنك تحدثه عن نفسه حين تتحدث عن نفسك. ولعلك تدرك تمام الإدراك أن الأديب العبقري يجب أن يكون في شغل بفنه وفكره وإلهامه عما يحب الناس وما يكرهون.

---

(١) الطبعة الأولى ص١٥٦ و١٥٧.

فعلى البلبل أن يغرد حيث يطيب له التغريد، وليس عليه أن يفتن صم الآذان أو غُلف القلوب.

***

obeikandl.com

بين الصنعة والطبع[1]

إذا كتبت خطابًا في المساء فاتركه بلا تظريف، لتسهل مراجعته في الصباح، ولتبقى الفرصة للحذف منه أو الإضافة إليه، فمن المؤكد أن للرأي موجات تختلف باختلاف الأوقات، وقد تُنكر في بياض الصبح، بعض ما كتبت في سواد الليل. وأنت عن تموجات رأيك مسئول.

كذلك أصنع في خطاباتي ومقالاتي لهذا العهد، ولم أكن أصنع ذلك من قبل. وإن زمنًا يكف من جُموحي لهو ألأم الأزمان!

ما كنت أعرف الفرق بين التسويد والتبييض، ولا كنت أستبيح معاونة الصنعة على مغالبة الطبع، وكنت أعجب حين أسمع أن في الكتاب من ينسخ مقاله مرات قبل أن يطمئن إلى صلاحيته لمواجهة القراء.

كان رأيي أن جري القلم في القرطاس هو جري الجواد في الميدان ... وللقلم أن يتلفت قبل إصابة الهدف، إن كان للجواد أن يتلفت قبل بلوغ الغرض ... ومن المحال أن يتلفت الجواد حين ينطلق في ميدان السباق، أو ميدان القتال.

وهذا المذهب في رياضة القلم هو الذي عرَّضني لكثير من الجراح؛ لأني لا أملك صده حين ينطلق، وهل يمكل الجواد مجانبة العثرات حين ينطلق؟

---

(١) مجلة الرسالة: ٢٠/٧/٤٢.

فما بال الأقدار تروضني بعد الجموح، وتفرض عليَّ أن أتلفت ذات اليمين وذات الشمال وأنا أجري في ميدان البيان؟

وما هذا الذي أعاني من زماني؟

أليس من المزعج أن أصبح من مخاطر القلم في أمان؛ لأن الظروف توجب أن يراعي قلمي أشياء لا يراعيها الجواد حين ينطلق في الميدان؟

وما قيمة الحياة الأدبية إذا خلت من المخاطر والمهالك والحتوف؟

أنا لا أعد الكاتب فارسًا إلا إذا استطاع بكل سطر، أو بكل حرف، أن يعرض قراءه إلى الاشتباك في حروب مع المعاني والآراء والأهواء.

فأين أنا مما أريد؟

وأين الفرص التي تسمح بأن أجرد من قلمي مشرط الغشاوة عن أعين أبناء الزمان؟

أنا اليوم أضمن السلامة من جرائر قلمي، كارهًا غير طائع؛ لأن النظام في هذه الأيام يصد الأقلام عن عنت الجموح والطغيان.

قلمي!

كيف مرت شهور بلا جراح يُدميها سنانُك؟

وكيف أمنت شرَّك، ونجوت من طغيانك؟

كيف وكيف؟

بيني وبينك ميعاد وميثاق، والأحرار لا يخلفون المواعيد، ولا ينقضون الموائيق.

***

وعلى صفحات الرسالة أيضًا بتاريخ ١٩٤٣/١/٤ تحدث حول المقالات التي لا يمكن للكاتب نشرها ...

وذلك من رده على خطاب وصل إليه، ويستهل كلمته بقوله:

ثم ماذا؟ ثم يبقى جواب الخطاب الوارد من «الأرمان» فماذا يريد ذلك الخطاب؟

هو يريد أن تكون مقالاتي كلها على غِرار «دار الهوى في عيد القمر»، فأين أنا مما يريد؟ وأين الأعصاب التي تستطيع تدبيج تلك الأحاسيس في كل أسبوع؟

أمام عينيَّ وبين يدي أرواحٌ موقوذة هي المقالات التي سطرتها بدمي، ولا أستطيع نشرها بأي حال؛ لأنها تخالف المألوف من تقاليد هذا الزمان.

ثم يحاسبني ذلك الخطاب على هفوات قلمي، كأنه يجهل أني أمتشق القلم في كل مساء، وأني أراود أبكار المعاني في يقظتي ومنامي.

أمَّا بعد فهذه ليلة الميلاد، وقد قضيتها وحيدًا فريدًا لأتقي الله في نفسي فلا أعرضها لشواجر الأرواح وعواطف القلوب.

وقد بقيت ليلة ستأتي بعد ليال، وهي ليلة العام الجديد، وأغلب الظن أني سأحرم نعيمها على نفسي؛ لأني نذرت التبتل بعد فراق من تلقبت عنهم وحي الروح في اللحظة التي تفصل بين العام الذاهب والعام الوليد.

ما جزعي على ما مضى من أيامي، ولم يعش أحد كما عشت ولا استجاب الوجود لنداء شاعر كما استجاب لندائي؟

ماذا صنع الدهر بهم؟ ماذا صنع؟

إن دنياي بعدهم وهمٌ في وهم، وخيالٌ في خيال، وإن أتذوق طيب الحياة إلا بعد أن يصفحوا عني.

إن ذنبي عندهم أني صيرت حياتهم أفانين من الارتياع والانزعاج ... فهل يجهلون ما صنعوا بحياتي؟ وهل يجهلون أن الجروح قصاص؟

قد كان لي قبلكم حبٌّ وكنت فتى ... لظل سلطانهِ أهلُ الهوى تَبَعُ
فكيف أشقيتموني كيف لا رَضِيتْ ... ولا أرتني الليالي كيف أرتدعُ
هَبُوا فؤادي سلاً واجتاز محنتهُ ... فمن بسلوة قلب الصب ينتفع
يا غاضبين تعالوا تشهدوا كبدًا ... رجاؤها في خيال البرء منقطع
هوى تهاوت أمانيه فليس لهُ ... فيما تجود به الأوهام مُنتفَع
هوى خلقتم وأفنيتم، ولا عجبٌ ... بعض الأحباء في قتل الهوى
لا تحسبوا هجركم خطبًا يروِّعني ... إني بوأد بنات الدهر مضطلعُ

زكي مبارك

منهاج الذاتية الأدبية

صديقي ...[١]

كتبت إليَّ تسأل عن المراد من «الذاتية الأدبية» وهي كلمة يكثُر ورودها على سنان قلمي، ثم تدعوني إلى رسم المنهاج، إن كان لها منهاج.

وأجيب بأن الذاتية الأدبية هي أن تكون أنت أنت فيما تكتب وفيما تقول، بحيث يشعر من يقرأ لك، أو يستمع إليك أنك تنقل عن قلبك وضميرك، وأن لك خصائص ذاتية لا يزاحمك فيها سواك، وأنك لو نشرت مقالًا بدون إمضاء لنمَّ عليك الروح قبل أن ينمَّ عليك الأسلوب، فإن الأساليب قد تتشابه في كثير من الأحايين تشابهًا يسمح بإضافة آثار كاتب إلى كاتب، أو شاعر إلى شاعر، أو مؤلف إلى مؤلف، عند طيِّ الأسماء.

أمَّا التشابه في الأرواح فهو نادر الوجود، ولعله لا يقع إلا عند ضعف الأرواح، كما تتشابه الغرائز أو تتماثل عند صغار الطير والحيوان.

ولتوضيح هذه النظرية أذكرك بمعلقة امرئ القيس ومعلقة لبيد؛ فمعلقة امرئ القيس يمكن أن تضاف إلى غيره من الشعراء، ويمكن لأي شاعر أن ينظم مثلها بلا عناء؛ أما معلقة لبيد فهي شعر لبيد، ولن يحاكيه فيها شاعر، ولو قضى العمر في رياضة النفس على الاقتداء.

---

(١) مجلة الرسالة: العدد ٤٧٩ بتاريخ ٤٢/٩/٧.

وبفهم هذه النظرية تتضح مشكلةٌ عجز عن حلها من تحدثوا عن المنحول من الشعر الجاهلي؛ لأنهم يبنون أحكامهم على الأساليب لا على الأرواح؛ فرقة الأسلوب هي عندهم خصيصة حضرية، وجزالة الأسلوب خصيصة بدوية، وعلى هذا يقاس، كما صنع سعادة الدكتور طه بك حسين.

الروح هو الأصل في تقدير القيم الأدبية، وعن الروح يتفرع الأسلوب. ولو شئت لقلت: إن لكل كاتب أساليب تختلف باختلاف مقامات الإنشاء، كما تختلف نظرات العيون باختلاف مقامات الحديث، وكما تختلف نبرات الأصوات لمثل تلك الأسباب، ثم يبقى الروح الذي يدل على صاحبه في جميع الحالات بلا استثناء.

فانظر أين أنت من هذه الحدود: أينم عليك روحك؟ أينم عليك أسلوبك؟ أتنم عليك التبعية الذليلة في الروح والأسلوب لأحد الكتاب أو أحد الشعراء.

انظر أين أنت، فأنا أحب أن أعرفك بالروح قبل أن أعرفك بالأسلوب، وافهمْ جيدًا أنه لا قيمة لأديب بلا روح؛ روح أصيل تعرفه بسيماه، ولو أقبل عليك ملثمًا مع ألوف من الأرواح.

هل قرأت سورة يوسف؟

في تلك السورة الكريمة آيةٌ صريحة في أن يعقوب وجد ريح يوسف قبل أن يصل القميص، وأنه شُفِي من عماه عند وصول القميص.

فهل تفهم المراد من هذا الرمز الطريف؟

هل تفهم كيف يدرك الأعمى أشياء بطريق لا سمع فيه ولا لمس؟

هذا هو الروح الذي أُحب أن تلتفت إليه في حياتك الأدبية؛ الروح الذي يدل عليك من أول سطر، أو من أول حرف، قبل أن يرى القارئ اسمك في خاتمة مقالك، فإن وصلت إلى هذا فأنت من أصحاب الذاتية.

ولكن كيف تصل؟

هنا يبدأ الحديث عن المنهاج:

يجب أولًا أن تحرر عقلك وقلبك وروحك من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل. ومعنى هذه الوصية أنه يجب أن تنظر في جميع الأشياء وجميع المعاني نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقوك ولو كانوا من أعاظم الرجال؛ لأن الغرض هو أن تصبح روحك جارحة من الجوارح، وهي لا تصير كذلك إلا إن عودتها الفهم والإدراك بلا وسيط. وهل تكون الروح أقل قيمة من الرجل، يا بني آدم، والرجل لا تمشي إلا إن عودناها المشي؟

وإذا كان علم السباحة لا يُغرف بالوصف، وإنما يُعرف بالتدريب على مغالبة الماء في أيام أو أسابيع، فعلم الروح لا يدرك بالوصف، وإنما يدرك بتدريب الروح على التذوق والتفهم في أعوام أو أزمان.

أراد سابحٌ عبور النيل فغرق، وأراد سابحٌ عبور المانش فنجح، مع أن السابحين توأمان. فكيف نجح هذا وغرق ذاك؟

يرجع الفرق إلى اختلاف التمرين والتدريب. وما يقال في القوة الجسمية يقال في القوة الروحية. فعاوِدْ روحك بالتمرين والتدريب في كل

وقت، واحفظها من الغفلة عن إدراك دقائق الفروق بين الأشياء والمعاني، وعودها التفكير في جميع ما ترى عيناك، وما تسمع أذناك، وما يهجس به الخاطر في اليقظة أو في المنام، فالنوم كلمة سوقية وليس له مع حياة الروح وجود.

إن عملت بهذه الوصية عامًا أو عامين ظفرت حتمًا بالحاسة الذوقية، وهي مفتاح الظفر بالذاتية الأدبية، فتوكلْ على الله وابدأ من هذا اليوم.

ويجب ثانيًا أن توطن النفس على الغُربة الأبدية، ولو كنت في دارك وبين أهلك، فالمفكرون في جميع العصور غرباء.

لن يكون لك ظهير غير قلمك، ولن يكون لك نصير غير روحك، فاعرف أين تضع قدمك قبل أن تخاطر بنفسك فتصحب رجال القلم البليغ.

إن صُحبتنا متعبة ومضنية ومؤذية؛ لأن طريقنا أشواك من تحتها أشواك، وقد رحبنا بالظمأ والجوع، وبما هو أفتك من الظمأ والجوع، في سبيل الذاتية الأدبية، فانظر كيف تصنع إذا ضَعفتَ عن السير في بداية الطريق، أو في منتصف الطريق، طريق الموت أو الخلود.

أرحمك فأنهاك عن الاحتراق بنار الأدب، وليتني وجدت من ينهاني قبل أن أحترق!

إن صريع الأمواج يجد من يمد له يد الإنقاذ والإغاثة؛ أما صريع النيران فلا منقذ له ولا مغيث، ونحن صرعى النيران لا الأمواج.

إنَّ اللصوص يتعاطفون فلا يشهد بعضهم على بعض، ولا يكيد أحدهم لأخيه، ولسنا لصوصًا حتى نعدك ونُمنيك، وإنما نحن أدباء يكتب أحدنا لزميله صحيفة الاتهام، بلا تروٍّ ولا استحياء.

ارجع قبل أن تحترق، أيها الخاطب لما يسمونه الأدب الرفيع ولو أنني أملك الرجوع لرجعت، فارجع أنت قبل أن يصعب عليك الرجوع، وقبل أن تصير الاستغاثة فوق ما تطيق.

كان شيخنا العظيم «عبد الحميد بن يحيى الكاتب» زودنا بنصائح تحفظ كرامة رجال الأقلام، فهل سمعنا وأطعنا؟ هيهات ثم هيهات!

لا يخدعك السراب الخداع فتتوهم أن احتراف الأدب أنفع من الاتجار بالتراب، ولا تُطع المضللين من أدعياء الأدب إلا إن ارتضيت إطاعة الشياطين.

لقد نصحتُك ونصحتك ثم نصحتك، فإن رأيت أن هذا النصح لم يؤثِّر في نفسك، ولم يبعدك عن عزمك، فأقبل ثم أقبل على الاحتراق باللهب المقدس؛ لهب الأدب، فنحن وحدنا الأحياء، ونحن وحدنا الخالدون، ولأعدائنا الموت والفناء!

إن كلمة تُضَمُّ إلى كلمة في ذكاء ولَوْذَعية أشرف وأعظم وأنفع من كنوز تضاف إلى كنوز؛ وإن وجود الله بالفكر والروح على من يصطفيهم من عباده، لهو أطيب الهبات، وأكرم الأرزاق.

أقسمَ اللهُ بالقلم، ولم يُقسم بالمال، ونحن بالله مؤمنون!

هل رأيت الله تخلى عن أديب سليم القلب قوي الروح؟

لقد خرج المتنبي هاربًا من مصر في ليلة عيد، فكم ألوفًا من الدنانير أنفقت مصر في تعليم أبنائها حكمة المتنبي؟

وقد مات محمد عبده بعلة أورثه إياها عقوق معاصريه، فكم ألوفًا من النفوس حاولت التشرف بأنها رأته قبل أن يموت؟

وعانى مصطفى كامل الكاتب والخطيب أشتات التهم الأوائم، ثم كان من خصومه وحاسديه ومبغضيه من اشترك في صنع التمثال.

ومرَّت آلاف السنين، والناس جميعًا يستوحشون من الليل، فكان غناء المصريين: يا ليل ... يا ليل!!

صديقي:

أتُراني شرحت المراد من الذاتية الأدبية، ثم رسمت لك المنهاج؟

هذه ومضة من ومضات، وسأرجع إلى إرشادك بالتفصيل، حين أطمئن إلى أنك أحدُ الأوفياء بالعهود.

***

ويعود زكي مبارك إلى الكتابة مرة أخرى فيقول تحت عنوان: «الذاتية» على صفحات جريدة البلاغ في ١٩٤٥/١٢/٥:

«الذاتية هي أن تكون أنت، أنت، فلا تكون صورة من غيرك، لا صورة من أبيك أو أخيك، وإنما تكون أنت أنت ...

إن في صورتك ذخائر من المعاني الدفينة، ذخائر تخفى عليك؛ لأنك لا تبحث ولا تفكر ولا تتأمل ولا تحاول التعرف إلى ما في صدرك من الكنوز الغوالي.

لو أقام الله ميزانًا لمحاسبتك لكان مصيرك إلى جهنم يا جاهلًا عما أودع الله في صدرك من لطائف الحقائق ودقائق المعاني.

من أنت؟ من أنت؟ من أنت؟

أدرس سريرة نفسك بعناية لتعرف من أنت، فما خلقك الله لتكون طفيليًا في هذا الوجود.

إن لله غاية حين خلقك وسواك، فما غاية الله من خلقك ومن تسويتك؟

الله يحب أن يرى إنسانًا سواه بيديه، فليكن ذلك الإنسان أنت، ولتكن أنت أنت ...

حقيقة الذاتية:

هي أن تكون لك هوية مستقلة عن هويات الناس كل الاستقلال، في تفكيرك وتدبيرك، وفي عقلك وروحك، وفي جميع شئونك بدون استثناء.

إن كنت مدرسًا فكن المدرس الأول.

وإن كنت كاتبًا فكن الكاتب الأول.

وإن كنت صحفيًا فكن الصحفي الأول.

أنت المسئول أمام الله عما وهبك من العقل والروح والوجدان، وليس لك عذر في تقصيرك في حق مواهبك، فأنت موهوب وإن كنت تجهل أنك موهوب.

إنك تجني على نفسك بوهمك فما مشكلات زمانك؟

إن موضوعات عصرك غير موضوعات الجاحظ في عصره ولو شئت لقلت: إن الموضوعات التي كانت تشغل باحثًا مثل الشيخ محمد عبده، وهو قريب العهد منك لا يجب أن تشغلك لأن وقتها فات، ولأنك لا تتأثر بها تأثرًا يصل بك إلى الإبداع.

من حقك أن تؤرخ الأزمان السوالف بقلمك، فهذا فن مطلوب، ولكن الكتابة عن عصرك توجب أن تعيش في عصرك لتعرف ما فيه من المتاعب والمصاعب، وما فيه من القلاقل الذهنية، والزلازل العقلية.

أي عصر عصرك؟ وأي مدينة مدينتك؟

إن مدينة البصرة لعهد الجاحظ كانت مدينة صغيرة، ومع ذلك أولت إلى قلمه فنونًا من المعاني لا تزال موضع الاستغراب.

إنَّ قوة الملاحظة تعوزنا بصورة مزعجة إلى أبعد الحدود، وإن غريزة التطلع كادت تنعدم، وكاد أساتذة المدارس يصيرون مُلقنين، وكاد التلاميذ يصيرون ناقلين.

لا بد من تغيير هذه الحال، وهذا التغيير موكول إلى الأساتذة بالمدارس الثانوية والعالية».

***

obeikandl.com

الحديث ذو شجون

إلى الأستاذ إبراهيم المازني:

صديقي:

حدثتنا مجلة آخر ساعة أنك سُئلت عني فأجبت: «لو أخلي زكي مبارك كتابته من الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما هو الآن».

وبمثل هذا أجاب الأستاذ عباس العقاد حين سألته عني مجلة الإثنين، فكيف تم التوافق بينك وبين صديقك فيما كتبتما عني؟

أهو من باب توارد الخواطر، ووقوع الحافر على الحافر، كما كان يقال؟ أم هو موصول بقصة المسيو ديبون؟ ... ومن ديبون؟

هو رجلٌ فرنسي صنع شرابًا سماه باسمه وأعلن عنه في جميع البقاع الفرنسية، فما تسير في شارع ولا تدخل قهوة ولا تركب قطارًا إلا وجدت اسمه مسطورًا بأحرف كبيرة تبهر العيون. ولم يكتف بذلك، بل وضع لوحة مسجوعة بهذا الوضع الطريف:

Chez Dupont, tout est bon!

وقد هالني هذا الإسراف في الإعلان، فسألت صديقًا فرنسيًّا عن السر فيه فأجاب:

ذلك رجلٌ نفساني هو يعرف العادة المتبعة في القهوات الفرنسية، العادة التي توجب أن يسألك غلام القهوة عما تطلب قبل أن تجلس، فتنطق بأكثر الأسماء ورودًا على بالك وهو ديبون!

والأمر كذلك فيما يتصل بحياتي الأدبية، فقد قال الدكتور طه حسين مرة: إنَّ أكثر أدب زكي مبارك في الحديث عن زكي مبارك. فلما سُئل الأستاذ العقاد عني وجد هذه العبارة في باله فأجاب. ولما سئل الأستاذ المازني عني وجدها في باله فأجاب، وكذلك تعاد قصة المسيو ديبون في القاهرة بعد أن سئمها الناس في باريس.

وهنا مشكلة لا أكتمها عنك، وهي الخوف منك، ولكن كيف؟

أنا لا أبالي نقد الدكتور طه حسين إياي؛ لأنني نقدته بمائة مقالة ومقالة، فمن السهل أن يقول الناس: إنه ينتقدني وفي نفسه أشياء.

وأنا لا أبالي نقد الأستاذ العقاد إياي؛ لأن بيننا أحقادًا تُنشر في حين وتُطوى في أحايين.

الخوف كله من نقدك؛ لأنك صديق حميم، ولن أجد من يتهمك بالتحامل حتى أطمع في أن يكذب الناس ما تقوله عني.

يضاف إلى هذا أنك مسموع الكلمة، وأن الجمهور لا يفطن إلى قدرتك على قلب الحقائق. وهل أنسى ما صنعت بنفسك وبصديقك العقاد؟

كانت العيون ترى قبل عشرين سنة أنك طويلٌ جدًّا، وأن العقاد قصير جدًّا فشاء برك بصديقك أن تزعم أنك القصير وأنه الطويل، ومازلت تبدئ وتعيد حتى آمن الناس بقولك وظنوا أنك قزم وأن العقاد عملاق!

وبنو آدم يصدقون ما يسمعون وما يقرءون، قبل أن يصدقوا ما تحدثهم به العيون والقلوب.

من أجل هذا أنقض حكمك عليَّ، وأرجو أن تكف عني شرك وإن لم تكففه عن نفسك، فما بي حاجة إلى صديق يسير على طريقة المسيو ديبون.

وماذا تنكر من حديثي عن نفسي؟ وماذا ينكر صديقك العقاد؟ وماذا ينكر الدكتور طه حسين؟

هل كان أدبك يا صديقي المازني إلا دورانًا حول نفسك؟ وهل كتب الأستاذ العقاد مقالًا أقوى من مقاله الأخير في مجلة الرسالة عن الأزمة التي صاولت روحه يوم احتلال العلمين؟ وهل كتب الدكتور طه أقوى مما كتب في الحديث عن طفولته وصباه؟

إن تصوير هُموم النفس وما يحيط بها من مخاوف وآمال هو أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء، فما العيب في أن يكون الحديث عن النفس من خصائص أدبي؟

وهل يمكن أن أتعرف إلى الوجود قبل أن أتعرف إلى نفسي، وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمم إلا أحاديث نفسية؟

ما هو سِفر أيوب الذي ترجم إلى أكثر اللغات؟

ألم تكن أصالته في التعبير عن المخاوف الروحية؟

وهل كانت أكثر القصائد الخوالد إلا إفصاحًا عن عواطف ذاتية؟

قال ديكارت: أنا أفكر، فأنا إذًا موجود.

ومن معاني هذه العبارة أن الشعور بالنفس هو أساس الشعور بالوجود.

لا موجب للمداورة في محاورتك، فأنت لم تنكر عليَّ الحديث عن النفس بمدلوله المعروف عند رجال الأدب، ولا كان هذا ما أنكره الدكتور طه والأستاذ العقاد، وإنما تنكرون الثناء على النفس، وهذا يقع من حين إلى حين، والثناء على النفس لا يضايق الناس حين يكون ثناء بالحق، وإلا فمن الذي استطاع أن يكذبني حين أثنيت على نفسي؟

ولكن هل جال في خاطرك أن تبحث عن السر في هذه النزعة النفسية؟

هل حاولت إدراك الأسباب للتكبر الذي أقع فيه كارهًا غير طائع؟

لو أنك فعلت لعرفت أني لا أتكبر إلا متحديًا، والتحدي نزعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر في دفع الجحود والعقوق، وإليك شاهدًا من مقالك بجريدة البلاغ في مساء هذا اليوم «١٨-٧-٤٣».

في كلامك عن «قصة الأدب في العالم» أثنيت على رأي المؤلفين الفاضلين أحمد أمين وزكي نجيب حين قررا أن عمر بن أبي ربيعة لم يقتصر على معشوقة واحدة، وإنما تبع الحسنَ أنَّى كان؛ بخلاف ما كان عليه أمثال قيس وكثيِّر وجميل، ثم تحمست للأمانة الأدبية والتاريخية فقلت:

«وهذا تفريق سبق إليه العقاد في كتابه (شاعر الغزل) وقد بسطه بسطًا وافيًا وتوسع في بيانه. ولست أقول: إن المؤلفين الفاضلين أخذا هذا التفريق عنه، فليس ما يمنع أن يتنبها إليه، ولكني أقول: إن الأستاذ العقاد سبقهما إليه، فمن الإنصاف أن يُذكر له فضل السبق ويسجَّل».

وهذه حماسة مشكورة، وهي من بعض صفاتك الطيبات، ومن الواجب أن نتلقاها بالترحيب، ولكن هذه الحماسة نفسها تقابل بالإنكار حين تصدرُ عني، كأن أقول في الرد عليك: إن أول من سجل هذا الرأي في كتاب طبع ثلاث مرات هو المبارك لا العقاد.

إن الكتاب «حب ابن أبي ربيعة وشعره» طبع أول مرة أوائل سنة ١٩١٩، وهذا الرأي مدوَّن في أول طبعة، فهل تكره أن أثني على نفسي فأقول: إني سبقت العقاد إليه بأكثر من ثلاثة وعشرين عامًا؟

وما أقول: إني كنت في بالك حين سجلت للعقاد ذلك السبق، فمن المحتمل أن يغيب عنك أني أول من أصدر كتابًا عن شاعر الغزل، وأن كتابي كان المنار لكل من تحدثوا عن ذلك الشاعر الفنان.

وأنا في الواقع أتعجب من استهانة الباحثين بالأمانة العلمية في هذا العهد، فما يمر أسبوع بدون مفاجآت غريبة تتمثل في سرقات جريئة من مؤلفاتي ومقالاتي، وأنا مع هذا أسكت لئلا يقال إني أكثر من الحديث عن نفسي!

وإصرارك وإصرار صديقك على أن هذا من عيوبي لن يصدني أبدًا عن النص الصريح بأن خلائق كثيرة تنتهب آرائي علانية وتعيش بها عيش السعداء.

هل تذكر ما قال بعض الناس حين جازيت العقاد قتالًا بقتال؟

قالوا: إنني أثنيت على العقاد من قبل، فكيف أهدم ما بنيت بالأمس؟

والاعتراض صحيح؛ ولكن المعترضين غفلوا عن أسباب ذلك الثناء، فقد أردت أن أشرح لطلبة السنة التوجيهية عناصر الكتب المقررة لمسابقة الأدب العربي، وعند ذلك تذكرت أني مدرس يعلم تلاميذ، ومن واجب المدرس أن ينزه أحكامه عن الأهواء.

وأثني على نفسي فأقول: إن تلك الدراسات نفعت المتسابقين أجزل النفع، وقد شكا الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ إبراهيم مصطفى من تأثير تلك الدراسات في عقول الطلاب، وقالا في دعابة: إنهما سيرجوان وزير المعارف أن يشير بأن لا تعاد تلك الدراسات في مجلة الرسالة، بعد أن ظهر أنها تُكثر من عدد الفائزين!

بهذا الصدق في الأحكام الأدبية أنصفت نحو عشرين باحثًا من رجال هذا الجيل، وفيهم خصوم ألداء يَشرقون بريقهم حين يسمعون اسمي.

فأين من يملك من الصدق بعض الذي أملك؟

المازني وحده يستطيع أن يجازيني صدقًا بصدق، فقد وقف بجانبي وقفة كريمة، يوم قال الدكتور طه على صفحات الرسالة: إن كتاب (النثر الفني) كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتَّاب.

ولكن هل يستطيع الأستاذ المازني أن ينصف خصومه كما أُنصف أعدائي؟

لقد يئست من إنصاف الناس، فكيف لا أنصف نفسي؟

في كتاب (ملامح المجتمع العراقي) ثناء على الأستاذ المازني والأستاذ الزيات، فهل قدمت نسخة من هذا الكتاب إلى أحد هذين الرجلين؟

عزَّ عليَّ أن أظهر بمظهر من يمن على الصديق، واستغنيت عن تقريظ الرسالة وتقريظ البلاغ؛ اكتفاءً بما أثنيت به على نفسي في مقدمة الكتاب!

وأعجب العجب أني أهديت كتابي إلى رجل لا ينتظر مني أي معروف، ولا أنتظر منه أي جزاء؛ ليكون في عملي شيءٌ لوجه الله ولوجه الوطنية، وهل رجلٌ سبقنا جميعًا إلى التشرف بخدمة العلم في العراق، ولم يحفظ له مواطنوه بعض ما حفظ له العراقيون.

وأنا بعد هذا أسأل من يُؤذيهم ثنائي على نفسي، أسألهم متى يجاهدون في الأدب كما أجاهد؟ ومتى يعانون في سبيل الأدب ما أعاني؟

أين الزميل الذي يقول: إنه أحرص مني على الوفاء بحقوق القلم البليغ؟

وأين الشخص الذي يملك الزعم بأنه نفعني؟ ومن هو المخلوق الذي يتوهم أن له دينًا في عنقي؟ ومن هو الروح الطاهر الذي يطمع في السيطرة على شيطانية روحي؟

كانت الغاية عندي أن أقيم الدليل على أن لوطني وجودية تحميه من الأباطيل، وكانت حياتي شاهدًا على صحة ما ابتغيت، فما استطاعت قوة أن تهدمني، ولا جاز في وهم مخلوق أن يراني من أتباعه، ولو كان أعظم العظماء.

أنا أخاطب رجلًا هو الأستاذ المازني، أُخاطب رجلًا يسره أن يعلم أني أسيطر على شآبيب من الدواهي المواحق، وسأصبها على أعدائي حين أشاء.

إنَّ أدبي من صنُع الله، وثقة الجمهور بأدبي من فضل الله، ولن أرتاب لحظة في أني أول كاتب وأول مؤلف وأول شاعر في هذا الزمان.

هاتوا برهانكم يا خصومي إن كنتم صادقين!

هاتوا برهانكم، هاتوه، إن استطعتم الاعتصام بخيوط الأحلام، أنا أثني على نفسي؟

هو ذلك؛ لأني أسهر الليل في مسامرة قلمي، ولأني أؤمن بأن الاعتماد على الماضي هو ثروة السفهاء من الوارثين.

سنلتقي غدًا وبعد غد، وسيكون صرير الأقلام أخطر من قعقعة السيوف. وإلى اللقاء، ولعله قريب!

زكي مبارك
٢٦ يوليو/ ١٩٤٣

***

obeikandl.com

اتقوا الله في أخيكم!

ذهب الأستاذ الزيات لزيارة صديقه (عين) فوجده مضى لقضاء أيام العيد بين أهله في المنوفية، ثم نظر في غرفة الاستقبال فرأى «منظار» الصديق فوق إحدى المناضد، فوضعه على عينيه ليعرف إلى أي حد تبدو الخفايا لمن يحمل ذلك المنظار العجيب، ثم هام في شوارع القاهرة يتوسم وجوه الناس فرأى فيهم غرائب وعجائب يشيب من هولها الوليد، فتفزع وقال وهو يحاور ذلك الصديق:

«أتريد أن أرد إليك منظارك، أم تسمح لي أن أجربه على عين الدكتور مبارك؟».

وما أحب أن أعود إلى تشريح مقال الأستاذ الزيات؛ لأنه مقال محزن، وأنا أخاف على نفسي وعلى القراء من النظر فيه من جديد.

ولكن لا بأس من النظر في التجربة التي يقترحها أخونا الزيات، وهو يريد أن أرى العالم مرة من وراء ذلك المنظار الذي نقل فهمه للدنيا والناس من حال إلى أحوال.

وأسارع فأقول: إن ما رأيته بالعين الطبيعية فيه الكفاية وفوق الكفاية، فمن الرفق برجل في مثل حالي أن تُعفى عيناه من النظر إلى الناس بمنظار يفضح ما خفي واستتر من دقائق المساوئ والعيوب.

الزيات هو الذي يحتاج إلى منظار يرى به خلائق الناس؛ لأنه كثير التلطف والترفق، ومن كان كذلك فهو قليل التعرض لآفات الناس، ومن هنا يقل علمه بما فيهم من دميم الغرائز وذميم الخصال.

أمَّا أنا، فقد دخلت على الناس في جحورهم وأوكارهم، وما زلت أهيجهم بقلمي حتى أسمعوني أعنف ما يملكون من هرير ونباح وعواء. وهل ابتُلي أحد بأهل زمانه كما ابتُليت؟ وهل عانى أحد من لؤم زمانه بعض ما عانيت؟

وهل بين قراء اللغة العربية في مصر والشرق من يجهل بليتي بزماني؟

لقد شكوت دهري وشكوت ثم شكوت، حتى عطف عليَّ أعدائي، فما حاجتي إلى منظار أرى به المستور من خلائق الناس وقد اكتوت يدي واكتوى قلبي بالسعير الذي يتمرد كلما سمع باسمي أو رآني؟

ويزيد في الغم والكرب عرفاني بأني لم أكن رجلًا لئيمًا حتى أقاسي من الناس ما قاسيت. وهل رأى الناس في القديم والحديث صديقًا في مثل أدبي وكرمي وسخائي؟ ومن هو الرجل الذي يجرؤ على القول بأنه أعرف مني بالواجب، وأحفظ للعهد، وأحرص على مقابلة الجميل بالجميل؟

وهل كان الذين ينوشونني بألسنتهم وأقلامهم إلا خَلْقًا بنيت أقدارهم بقلمي ولساني؟

دلوني على صديق واحد أسأت إليه في مَحْضر أو مغيب.

لو كنت رجلًا لئيمًا لنسفت أعدائي وخصومي في يوم أو يومين ثم استرحت من التفجع على مصاير الناس إلى مهاوي البغي والعقوق؛ ولكنني رجل كريم يكره الغدر ويستعيذ بالله من العدوان على الناس، وذلك بابٌ من الضعف الشريف، وأنا به مزهو مختال.

وما الذي ينكر عليَّ أهل زماني حتى يصدوني بغدرهم عن الثقة بأبناء آدم وحواء؟

أنا أعرف ما ينكرون عليَّ، فقد ساءهم أن أسجل ما في زماني من صغائر ومعايب وموبقات. ساءهم أن أفضح سرائر الأدعياء، وأن أقهرهم على الاستهانة بالأدب المزيف لتُقبل عقولهم وأذواقهم على الأدب الصحيح.

وهل أخطأت حتى ألقى من بَغْيهم ما لقيت؟

إن أعدائي يقولون في كل وقت: إن مصر هادية الشرق فكيف يُلام من يوجه المصريين إلى أصول الصدق والعدل لتصح لهم السيطرة الأدبية على الشرق؟

وهل يعرفون لي ذنبًا غير هذا الذنب الجميل؟

إن كان في هذا البلد من يؤمن بأنه ضحى في سبيل الأدب بأعظم مما ضحيت، فليتقدم ليحمل بعض ما أحمل من ثقال الأعباء.

ذلك رأيي في نفسي، وهو حق، فليكذبني من يجرؤ على مصاولتي من أهل الأدب والبيان.

وما قيمة مصر في الشرق أو الغرب إذا صحَّ لأهلها أن يقهروا رجلًا مثلي على اليأس من العدل؟

وبأي حق يدعوني الناس إلى التلطف والترفق وأنا لم أر منهم غير الظلم المبين؟

وفي أية شريعة يفرض على الرجل المظلوم في وطنه أن يعلن أنه من السعداء؟ ومن الذي يراجع الظالمين إذا سكت قلم الأديب؟

حدثوني كيف يسكت من يرى أصدقاءه يأكلون لحمه بلا تهيب ولا إشفاق؟

حدثوني كيف يحرُم الغضب على رجل يرى تخلف العقل في بلد يستطيل أهله على الشرق باسم العقل؟

نحن في مصر التي سبقت جميع الشعوب إلى المدنية، فمن حقنا عليها أن نرجو حرية التعبير عما نعاني من معاطب وحتوف، ومن يسمع شكوانا إذا تجاهلت مصر أننا بفضل جبروتها أشقياء؟!

إلى من نتوجه إذا تعامى الوطن الغالي عن مآسينا الدامية؟

آه! ثم آه!!

في وطن الأزهار والرياحين تموت أفئدة وقلوب.

وفي الوطن الذي شرع مذاهب العدل بوحي النيل الذي لا يُخلف الميعاد تموت أرواح حساسة واعية معدوًّا عليها بسهام الظلم البغيض.

في وطن النيل الذي لا يخلف الميعاد تضيع جميع المواعيد.

احذروا، ثم احذروا من أن أراكم بعين الناقد، يا أبناء هذه البلاد.

لقد نظرت إليكم بعين المحب فلم أر غير مآثم ومنكرات، فكيف تكونون لو نظرت إليكم بعين الناقد المنصف؟ كيف تكونون وأنتم حرب على الصديق الأمين؟

ويريد الزيات أن أراكم من وراء المنظار الذي كشف له من الطبائع ما لم يكن يعرف، فهل يظن بي السفه والحمق حتى أتعرض للمستور من عيوبكم ومساويكم؟!

أنتم أجمل الخلق في أعين من يرونكم من بُعد؛ ولكنكم «أجمل» الخلق في أعين من يرونكم من قرب، وأنا منكم قريب، فما أعظم شقائي!

اسمعوا، يا بني آدم من أهل هذه البلاد.

أنتم وثقتم بأدبي، وليس فيكم من يخاف أن أضيع عليه حظًّا غنمه بأي سبب من الأسباب، وبفضل هذه الثقة تجترحون ما تجترحون، فخوضوا كيف شئتم في أوشال الأكاذيب والأراجيف، فلن أجازيكم بغير الصفح والغفران.

هات المنظار، يا زيات، هات.

هات المنظار لأرى به عيوبي، وأنسى التفكير فيما عانيت من أصدقائي، ويرحم الله عهدًا كان لي فيه أصدقاء!

حملت المنظار لأرى عيوبي، فماذا رأيت؟

- رأيتني أخطأت أعظم الخطأ حين توهمت أن بني آدم هم جميعًا من طراز ذلك الصديق الغادر الذي صعُب عليه أن أعيش وكان يحب أن أموت!

وهل هناك جُرم أقبح من الجرم الذي اقترفت؟

مضت أعوام وأعوام وأنا أتلقى في كل يوم رسائل من قلوب تُقسم بأنها قادرة على الطب لجروح قلبي، فهل استمعت نداء تلك القلوب؟

أنا أتلقى في كل يوم رسائل من فلسطين وسورية ولبنان والحجاز واليمن والعراق وتونس والجزائر ومراكش، فهل فكرت في الإجابة عن تلك الرسائل الودية؟

وكيف وأنا أتجاهل ما يصل إليَّ من أصوات القلوب في مصر والسودان؟

وكان ذلك لأني يئستُ من بني آدم بفضل الأصدقاء الذين سقيتهم الشهد فسقوني الصاب!

فما الذي يمنع من الاستجابة لدعاء تلك القلوب؟

ما الذي يمنع وأنا أعيش محرومًا من نعيم الصداقة والحب؟

وهل يرفض من يعيش في مَسبعة أن يخرج إلى الحواضر المأهولة بأرواح الناس؟

يمنع من ذلك أن أطياف الغادرين تصدمني حيثما توجهت، فالدنيا كلها هي وجوه الذئاب التي شقيتُ في تربيتها لتقوى على مضغ لحمي وعرق عظامي.

الدنيا كلها هي فلان وفلان وفلان الذين خلدتُ أسماءهم في مقالاتي ومؤلفاتي ليصح لهم البغي عليَّ باسم الأدب والدين.

هات المنظار، يا زيات، هات.

حملت المنظار لأرى عيوبي، وما أكثر عيوبي!

رباه، رباه!!

ما هذا الذي أرى؟

ذلك صديق أهجم عليه هجومًا صوريًا لأرفع اسمه بين الأسماء؛ فيراني من الأعداء.

وذلك رفيق أدله على الخير فيراني من الآثمين.

وذلك صاحب تشغلني الشواغل عن زيارته فيراني من الغادرين، وذاك أخ عزيز لا تهمه غير الظواهر ويغفل قلبه عن الخدمات التي أؤديها إليه في المغيب فيراني من الجاحدين.

فلأية حكمة خلق الله بعض الناس بلا بصائر ولا قلوب؟

أيكون الله أراد أن يمتحننا بخلقه حتى نؤمن صادقين بأنه صاحب الفضل الأول والأخير في الطب لجراحنا الدامية؟

إن كان ذلك ما يريد فقد رضينا بما يريد.

ولكن الله يعلم أننا أصغر من أن نأنس بنجواه. ولا بد لنا من مخلوقات نساقيها كئوس الود حين نشاء، ونرى فيها صور أحلامنا وأوهامنا حين نريد، فمتى يمن الله علينا بأطياف تلك المخلوقات؟

كم تمنيت أن أراك في خلقك، يا فاطر الأرض والسماوات. ولو استطعت لشغلت نفسي بك عن خلقك. وكيف أستطيع وأنا لا أملك السمو إليك، أيها الروح المسيطر على جميع الوجود؟

أنا أعترف بذنوبي.

لي أصدقاء ضيعتهم، وكنت من الظالمين.

منهم ذلك الروح الذي شقي في أن يُنطق لساني بالاعتراف بأنه صديق، والذي يكتب إليَّ ما يكتب ثم لا يظفر بجواب.

وكان في يدي أن أملك ذلك الروح ملكًا أبديًا وأن أصوغ من نجواه رسائل وقصائد أسيطر بها على الخلود.

توسل إليَّ ذلك الروح أن أحفظ عهد الوفاء، وأن أعلن أني له صديق ليحدِّث أهله بأنه موصول الأواصر برجل له قلب.

ومن أجل هذا الروح الذي أخلفت آماله كل الإخلاف تحكم المقادير بأن أعيش في دنياي بلا صديق.

فيا أيها الروح الذي يحدِّث أهله بأني لا أنساه ولن أنساه، أيها الروح الذي يدعوني فلا أجيب، اعرف ثم اعرف أن الله انتقم لك مني، فأنا اليوم بلا صاحب ولا رفيق.

هات المنظار، يا زيات، هات.

هات المنظار لأرى عيوبي، وما أكثر عيوبي!

هات المنظار لأرى الأسرة المكونة من أربعة أرواح، الأسرة التي ودعتني بالدمع المحرق يوم الفراق.

فإن سمعتم يا قرائي، أنني سأقضي بقية العمر في كرب وبلاء، فاعرفوا أن ذلك جزاء الغدر لمن يتناسى فضل تلك الأرواح.

غرتني منزلتي الأدبية فتجاهلت أقدار تلك الأكباد الرقاق، فمتى أرجع إلى مساهرة النجوم في صحبة الأكباد الرقاق؟

فإن قتلني اليأس من عدل الأهل والأصدقاء فقد كنت الظالم الأثيم.

والله أرحم من أن يعاقب قلبًا يعترف بذنوبه وخطاياه.

أنا باقٍ على العهد يا أحبابي، ويرحم الله من قال:

لقد صدَدنا كما صددتم فهل ندمتم كما ندمنا

مجلة الرسالة ١٩٦٣/٨/٧

***

الحديث ذو شجون

الوساطة بين الدكتور طه والأستاذ المازني:

لم يعد القراء يلتفتون إلى ما يقع في الجرائد اليومية من المصاولات الأدبية، فقد صنعت أزمة الورق ما صنعت في صد الجرائد عن الآداب والفنون؛ وبهذا أصبح مجال الأدب مقصورًا على المجالات الأدبية، فمن الخير أن نحدث قراء الرسالة عما يفوتهم الاطلاع عليه مما يقع من الصيال الأدبي فوق صفحات الجرائد اليومية من حين إلى حين.

وكلمة اليوم في شرح مناوشة عنيفة ثارت بين الدكتور طه والأستاذ المازني على صفحات جريدة البلاغ، وهي مناوشة تمثل التجني والتظالم على أعنف ما يكون بغي الرجال على الرجال.

وسنقف من هذه المناوشة موقف القاضي العادل، فقد ساءنا أن يتقارض هذان الرجلان الظلم والعدوان بلا ترفق ولا استبقاء بعد أن ظلا صديقين حينًا من الزمان.

والذي يهمني من هذه الكلمة هو أولًا تسجيل حادثة أدبية لا ينبغي أن تضيع، وهو ثانيًا إنصاف رجلين عزيزين على الأدب وقد بغى كلاهما على أخيه بتحامل وإسراف، وهو ثالثًا توضيح لألغاز ساقها الدكتور طه بك مع اعترافه بأن فهمها لا يتيسر لأكثر القراء.

وأصل القضية أن الأستاذ عزيز بك أباظة مدير البحيرة أصدر مجموعة شعرية سماها: «أنات حائرة» مع تصدير بقلم الدكتور طه حسين، فلما بدا

للأستاذ إبراهيم المازني أن يتحدث عن تلك المجموعة بدأ بالهجوم على صاحب التصدير، فغضب الدكتور طه وكتب ردًّا أراد دفع العدوان بما هو أقسى من العدوان.

ولأجل أن يدرك القراء حيثيات الحكم في هذه القضية أسوق إليهم كلمات الخصمين قبل الشروع في الحساب.

قال الأستاذ المازني بعد التمهيد:

«وتوكلت على الله فقرأت التصدير الذي كتبه الدكتور طه حسين بك فقلت لنفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله. هذا طه حسين يخسره الأدب ولا تكسبه الحكومة، فما خُلق لها بل للأدب وإنه ليضيع نفسه في هذه المناصب التي تشغله وتستنفذ جهده ووقته ... فإذا كتب جاء بماذا؟ جاء بمثل هذا الكلام الذي لا محصول وراءه ولا أعرف له رأسًا من ذنب، فلماذا لا يستقيل ويريح نفسه من هذا العناء الباطل ويتفرغ للأدب؟ ماذا يفتنه من هذا العرض الزائل والذي أهمل أو ترك أبقى؟ كيف يستطيع بالله أن يواظب على التحصيل وتغذية عقله ونفسه -وهو ما لا غنى بأديب عنه- وكيف يتسنى له التجويد حين يكتب وهو مشغول في ليله ونهاره بهذا الذي لا آخر له من شئون الوظيفة واللجان وما إليها. وهو يتولى أعمالًا كل واحد منها كاف للإرهاق، فمن جامعة فاروق إلى منصب المستشار الفني لوزارة المعارف إلى عشرات من اللجان يشارك فيها وتأبى له كرامته أن يكون صفرًا، ولو اقتصر على الجامعة لكان خيرًا، ولو نفض يده من هذا كله لكان أفضل».

عناصر الهجوم:

وخلاصة لهذه الكلمة...

١- أن الدكتور طه حسين خسره الأدب ولم تكسبه الحكومة، ومعنى ذلك أنه يتولى عملًا لم يخلق له. وسنرى كيف ثار الدكتور طه على هذه العبارة وعدها تحديًا لقدرته على الأعمال الحكومية.

٢- وأن الدكتور يضيع وقته ونفسه في مناصب تشغله وتستنفذ جهده ووقته، فإذا كتب جاء بكلام لا محصول من ورائه ولا يعرف له رأس من ذنب.

٣- وأن الأفضل للدكتور طه أن يستقيل ويريح نفسه من العناء الباطل (وهو عمله في الحكومة) ويتفرغ للأدب ...

٤- وأنه لا يمكن للدكتور طه أن يزود نفسه بالتحصيل أو يتفرغ للتجويد حين يكتب، وهو مشغول ليله ونهاره بأعمال كل واحد منها كاف للإرهاق.

كلمة الدكتور طه:

وجه الدكتور كلمته إلى صاحب البلاغ ثم قال بعد التمهيد:

«أؤكد للأستاذ المازني أني آسف أشد الأسف؛ لأن الأستاذ عزيز أباظة لم يطلب إليه هو كتابة هذا التصدير؛ إذن لكان له المحصول كل المحصول، ولكان له رأس كقمة الجبل، وذنب كالذي خوف به المنجمون المعتصم حين هم بفتح عمورية. وآسف أشد الأسف لأن

الحكومة لم تكل إلى الأستاذ عملي في وزارة المعارف وفي جامعة فاروق إذن لكسبته الحكومة والأدب جميعًا. والأستاذ المازني يعرف أن لأبي العلاء قصة مع الشريف المرتضى، وأظنه يأذن لي في أن أسرق من هذه القصة شيئًا فالسرقة في الأدب مباحة ولا سيما حين تكون في العلن لا في السر، وهي حينئذ أشبه بالسطو، ولست أسرق من قصة أبي العلاء أو لست أسطو منها إلا بمقدار. فأنا أرجو أن يقرأ الأستاذ سورة الفلق، وأن يقرأ مطوَّلةَ لبيد، وأن يقرأ مطولة طرفة وعينية سويد بن أبي كاهل التي مطلعها.

بسطت رابعة الحبل لنا فبسطنا الحبل منها ما اتسع

ورائية الأخطل التي مطلعها:

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بدر وإن كان حيَّانا عِدا آخر الدهر

ولامية المتنبي التي مطلعها:

بقائي شاء ليس هممُ ارتحالا وحسن الصبر زموا لا الجمالا

وسيقول القراء: إني ألغزُ بهذا الكلام ولكنني أعتذر إليهم؛ فإني لا أكتب لهم وإنما أكتب للأستاذ المازني. أنا أسلك في ذلك طريقة الأستاذ نفسه فمن المحقق أنهم لم يفهموا عنه ما قال أمس؛ لأنهم لم يقرءوا التصدير الذي لا محصول وراءه والذي لا رأس له ولا ذنب. وأحبب إليَّ بأن أستقيل وأفرغ للأدب ولكني أود أن أستيقن قبل ذلك بأن الحكومة ستضع الأستاذ المازني مكاني، لنرى أيكتب كلامًا كالذي أكتبه أم يكتب كلامًا خيرًا منه.

أمَّا بعد فأنا ضامن للقراء إحدى الحسنيين، فإما أن يسكت الأستاذ المازني فيستريح من هذا السخف الذي نحن فيه، وإما أن يكتب الأستاذ المازني فيجدوا شيئًا يرفه عليهم من هذا القيظ المهلك ويقرءوا كلامًا له الرءوس كل الرءوس والأذناب كل الأذناب».

حل الألغاز:

ونسارع فنذكر أن الإشارة إلى سورة الفلق مُنصبَّةٌ على آية {ومن شر حاسد إذا حسد} وأن الإشارة إلى مطولة لبيد تتجه إلى هذين البيتين:

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفى بأعظم حظنا قسامها

وأنه يريد من مطولة طرفة هذين البيتين:

فلو كنت وغلا في الرجال لضرني عداوة ذي الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عني الأعادي جرأتي عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي

ومن عينية سويد أشار الدكتور طه إلى هذين البيتين:

رب من أنضجت غيظًا قلبه قد تمنَّى لي موتًا لم يطع
ويراني كالشجا في حلقه عسرًا مخرجه ما يُنْتَزَع

وأراد من رائية الأخطل هذين البيتين:

تنقُّ بلا شيء شيوخ محارب وما خلتها كانت تريش ولا تبري
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحرِ

ومن لامية المتنبي أراد هذين البيتين:

أرى المُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بذمي ... ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مُرٍّ مريضٍ ... يجد مرًّا به الماء الزُّلالا

وما أردت تبليغ هذه التعاريض إلى الأستاذ المازني؛ وإنما أردت منفعة القراء، والشر يتسم بالخير في بعض الأحايين.

غمزات الدكتور طه:

١- كان يستطيع أن يقول: إنه يستعير قصة أبي العلاء مع الشريف، ويستعير هي اللفظة المطلوبة في هذا الموقع، ولكنه قال: إنه يسرق لينَدد بالأستاذ المازني، ولم يكتف بذلك بل جعل سرقته علنية وهي حينئذ أشبه بالسطو كما قال.

٢- صور الأستاذ المازني بصورة الحاسد لمن كتب تصدير الديوان.

٣- وصوره بصورة من يعجز عن عمل المستشار الفني بوزارة المعارف، ومن يعجز عن إدارة جامعة فاروق.

الدكتور طه في الأعمال الحكومية والأدبية:

لقد فصلنا الخصومة بين الرجلين بوضوح، ولم يبق إلا أن نكف شر الأستاذ المازني عن الدكتور طه، وشر الدكتور عن الأستاذ المازني؛ لأننا نكره أن تختل الموازين في هذه البلاد، وإذا كان الأستاذ المازني هو البادي بالظلم فأنا أبدأ بالدفاع عن الدكتور طه، والهجوم عليه ذو شعب، فهو تارة أديب أضاع نفسه بالأعمال الحكومية، وتارة موظف لا يحسن إدارة الأعمال، وتارة حائر لا يهتدي إلى ساحل الأمان.

وأشهد أن الدكتور طه من أقدر الرجال على إدارة الأعمال الحكومية فما تولى عملًا إلا أقبل عليه بهمة وقوة، ولا سما إلى مطلب إلا وصل إليه بأيسر أو أعسر مجهود. والدكتور طه مثال نادر من أمثلة البراعة في الشئون الإدارية، وهو مفطور على سرعة التصرف، وأخطاؤه القليلة أو الكثيرة لا تقاس إلى صوابه الملحوظ في الابتكارات الديوانية.

وما الذي يمنع من الحكم بأن الدكتور طه دفع عن رجال الأدب قالة من أسوأ القالات؛ فقد مرت أزمان والناس يتوهمون أن رجال الأدب لا يصلحون للأعمال الإدارية، وكان من أثر هذا التوهم أن لم نر لأحدهم مكانًا في المناصب العالية من الوجهة الرسمية، فجاء نجاح الدكتور طه حاسمًا على أوهام أولئك المتوهمين، وكذلك يقال في تولي الدكتور طه إدارة جامعة فاروق.

فذلك مغنم عظيم لرجال اللغة العربية، وكانت الحكومة لا تكل إلى أحد منهم إدارة مدرسة ابتدائية، وهل ننسى أن مدرسة دار العلوم ظلت آمادًا طوالًا تحت نظارة رجال من غير أبنائها مع أن فيهم كثيرًا من الأكفياء.

ويسرني أن تشهد البواكير بأن الدكتور طه سيفلح في إدارة جامعة فاروق كما أفلح من قبل في إدارة كلية الآداب بجامعة فؤاد، وكما أفلح في أعماله بوزارة المعارف.

أمَّا قول الأستاذ المازني بأن شواغل الدكتور طه تصرفه عن تزويد عقله بالمطالعات والمراجعات فهو قول صحيح؛ ولكنه لا يؤذي الدكتور طه في شيء؛ لأن الدكتور طه قد اختار لنفسه أن يكون من رجال الدولة لا

من رجال الأدب، وهو لن يزاحم أحدًا من الباحثين ولن يقول: إنه أوحد الناس في جميع الفنون، فما يجوز لمن يكون في مثل حصافته أن يتناسى أن الأستاذية في الأدب توجب الانقطاع إلى الأدب وتفرض الخلوة إلى النفس ساعات من كل يوم، وذلك لا يتيسر لمن تكون الأعمال الإدارية عناءه بالنهار وهمه بالليل.

المازني ضحية الأدب ولكنه لن يضيع:

من التقاليد الموروثة بمصر احترام الوظائف والموظفين، وقد كان الآباء في عهد الفراعنة يوصون أبناءهم بطاعة الرؤساء ويحضونهم على تنفيذ الأوامر بلا اعتراض ليظفروا من مناصب الدولة بأكبر نصيب ... وأنا لا أرى في هذا شيئًا من الذلة في طلب المجد وكما رأى بعض الناس، وإنما أراه شاهدًا على أصالة المصريين من الوجهة النظامية، فطاعة المرءوس للرئيس يوجبها نظام الأعمال إذا حسنت النيات وزال معنى الخُضوع الممقوت.

واحترام الوظيفة في مصر له أصل فقد كانت الوظائف من أنصبة الأغنياء والأقوياء، وكان مفهومًا أن الرجل لا يظفر بوظيفة إلا إن كانت له عصبية تحميه من الكائدين أو تعينه على تحقيق السيطرة في الإقليم الذي يشرف عليه بأي صورة من صور الإشراف ...

ونحن اليوم نخضع لتلك التقاليد خضوعًا يعترف به القلب وإن أنكره اللسان، فمن السهل أن يسأل سائل عن مكانة الأستاذ المازنيّ في الدواوين الحكومية، وكان قبل ثلاثين سنة أستاذًا في مدرسة من كبريات المدارس الثانوية ومن زملائه من وصل إلى مكانة تضيفه إلى المحسودين

بين كبار الموظفين، فماذا صنع المازني بنفسه حتى تخلف هذا التخلف وحتى صار من حق أي إنسان أن يقول له: داعب هذا المنصب إن كنت تستطيع؟

حظ المازني يظهر واضحًا إن تذكرنا ما صار إليه ناصحه الأمين وهو الأستاذ عبد الفتاح صبري وكيل المدرسة السعيدية يوم كان المازني أستاذًا بالسعيدية؛ فقد خضع الأستاذ عبد الفتاح صبري للأنظمة الإدارية خضوعًا وصل به إلى أرفع منصب في وزارة المعارف، وثار المازني على الأنظمة الإدارية ثورة وصلت به إلى العيش من سنان القلم في الجرائد والمجلات.

فما النتيجة وما الغاية في حياة هذا وذاك؟

مات عبد الفتاح باشا صبري ميتة الغريب، فلم تبكه وزارة المعارف ولم يحزن عليه مخلوق، ولن يذكر بغير الملام إن تسامح معه التاريخ.

أما المازني فلن يموت أبدًا. وهل يموت رجال الأقلام والآراء؟ المازني من أمجاد مصر الأدبية وصفحة واحدة من أصغر كتاب ألفه المازني أبقى على الزمن من جميع المناصب، والله عزَّ شأنه أقسم بالقلم ولم يقسم بالجاه ولا المال.

وهل كانت مصر ترضى أن يصير المازني إلى وظيفة تقبره، كما قبرت الوظائف مئات من المفكرين بهذه البلاد؟

اقترحتُ مرة على صفحات الرسالة أن تقرر الدولة معاشًا للأستاذ المازني بحجة أنه أدى خدمات لم يؤدها من تمتعوا بكرم الدولة باسم الأقدمية في الوظائف.

وأنا في هذه اللحظة أسحب ذلك الاقتراح، فلن يجوع المازني وفي يده قلمه، ولن يشيخ قلم المازني ولو صار صاحبه في ضمور طيف الخيال.

كلمة صريحة إلى الدكتور طه حسين:

ولكن ما الذي آذاك أيها الأستاذ الجليل من تلك الغمزة المازنية؟ وما الذي آذاك منها وهي حق في حق؟

أتريد أن نتوهم أنك كنت معنا فطرت عنا؟

أيرضيك أن نتناسى اسمك في المناوشات الأدبية؟

إن كان هذا ما تريد فأنت وما تريد؛ ولكننا لن نحترم إرادتك إلا كارهين؛ لأننا نرفض تسليمك إلى الحكومة بأي ثمن، وسنجاهد إلى أن نستردك، فجهز نفسك لوصل حاضرك بماضيك في خدمة الأدب الرفيع.

مجلة الرسالة/العدد ٥٢٧

٩ أغسطس ١٩٤٣

***

obeikandl.com

تشريح عاطفة الحب

إلى الدكتور طه حسين:

أيها الأستاذ الجليل[١]:

سألتني يوم لقيتك بوزارة المعارف في صباح اليوم الثامن من هذا الشهر عن سبب اهتمامي بالحديث عن الحب، وقد جرى ذكر كتاب «ليلى المريضة في العراق»، وكانت الابتسامة التي تشع ضوءها في ملامح وجهك تحمل معنى التعجب من أن تسمح الدنيا بأن أعيش بقلب المحب المتيم المتبول.

فأجبتك بأن شواغلي في الحياة قد تجعل الحب آخر ما يشغل قلبي ... ولكن حديثي عن الحب صار مذهبًا أدبيًا أشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء، وأنا أريد أن أخلق جوًّا من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان ... فابتسمت ابتسامة لها معنى، وقلت: اخلق البشاشة في الزمن إن استطعت ... ثم خضنا بعد ذلك في شجون من الأحاديث سأرجع إليها بالتدوين بعد حين.

ويهمني اليوم أن أشرح ما كان يجب أن أقول في جواب سؤالك لو رأيتك منشرح الصدر لا تشكو تدخل بعض الناس في شئون قد يجهلونها كل الجهل، أو يتجمسون لها بعقيدة مدخولة وإيمان مصنوع.

---

(١) مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٠/٢/١٩.

ونحن لم نبتكر الكلام في الحب، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود. وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب؟

ولأي غرض يحيا الناس إذا أصيبت أفئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف؟

وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية؟

إنَّ المتوقرين والمتزمتين يتوهمون أنهم وجدوا الحجج الدوافع حين استطاعوا أن يقولوا: إن الدنيا في حرب، وأن الظروف لا تسمح بالحديث عن الحب.

وأقول: إن ما هتفوا به لم يصدر إلا عن صدور مراض، فالحب لا يغزوا إلا قلوب الأصحاء وهو يساور قلوب الجنود في أصعب أوقات الحروب ... وهل كان عنترة بن شداد ماجنًا حين قال:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وما هتف به عنترة هتف به ضابط مصري سمحت له لجنة الأناشيد العسكرية بأن يقول:

من عندك زيي يا خضرهْ   في الرقه يا غصن البانْ
ما تجودي عليَّ بنظرهْ   وأنا رايح ع الميدانْ

وهذا الضابط اسمه عبد المنصف محمود، ولا أعرف كيف اهتدى إلى هذه الفكرة الطريفة وهو يعيش في زمن مثقل بآصاد التصنع والرياء.

obeikandi.com

لقد قيل: إن هذا النشيد لا يصلح للجنود وهم يتأهبون للقتال. وأقول: إنَّ هذا النشيد من شواهد العافية، فلكل جندي في الجيش أوطار روحية هي الحافز الأعظم للاستبسال في ميادين الشرف والوطن. والجندي الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبدًا للاستشهاد في سبيل الوطن الغالي؛ لأن الوطن لا يغلو إلا في صدور أرباب القلوب.

وأنا أنتظر أن يسود ذلك النشيد على سائر الأناشيد، فقد هتف به جندي سليم الجسد والروح، وهو أفضل من الأناشيد التي ينظمها شعراء لم يعرفوا الفرق بين السيف والرمح، ولم يسمعوا صوت المدفع إلا في ليالي رمضان... من الفضول أن أحدثك عن أهمية الحب ولك فيه تاريخ؛ ولكن أحب أن أعرف كيف يندر أن نجد بين كتابنا من يهتم بتشريح عاطفة الحب؟ وكيف يرانا من سيدرسون آثارنا الأدبية بعد جيل أو أجيال حين يظهر لهم أننا كنا نحسب الحديث عن الحب من فنون المزاح؟

الحب جِدُّه جد، وهزله جد، ولا يتجاهل هذه العاطفة إلا الغافلون عن تأثير الحسن أو السيئ في تلوين الوجود.

الحب جدٌّ صراح والاهتمام بدرسه يؤدي خدمات عظيمة لعلم النفس، فكيف نسكت عن درسه وله قدرة قاهرة على الضر والنفع، وله تاثير شديد في توجيه مصاير الرجال...

وبأي حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب؟

وكيف يجوز أن يقهرني العيش في عصر التزمت على الدفاع عن كتاب «ليلى المريضة في العراق» وهو كتاب أردت به خلق الحيوية الأدبية بين أبناء هذا الجيل.

إن التوقر الذي يصطنعه بعض الناس قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية، وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد يوم كان لنا شعراء لا يهتفون بغير أوطار القلوب.

وأين نحن من العصر الذي عاش فيه عمر بن أبي ربيعة، أو العصر الذي عاش فيه العباس بن الأحنف، أو العصر الذي عاش فيه الشريف الرضي؟

وهل يمكن القول بأن الحاسة الدينية في هذا العصر تفوق الحاسة الدينية في عصر أولئك الشعراء؟

لا يمكن القول بذلك، فنحن بشهادة رجال الدين أقل حرصًا على الواجبات الدينية من الرجال الذين عاصرهم أولئك الشعراء، والله يغفر لي ولك ولسائر أهل هذا الجيل.

الفرق بيننا وبين أسلافنا لا يحتاج إلى توضيح.

كان أسلافنا أصحاء، فكانت عصورهم تجمع بين أشرف صنوف الهداية وأعنف ضروب الضلال... وكان الرجل الديان لا يتورع عن رواية أظرف قصائد الغزل والتشبيب. وكان هناك توازن بين حقوق القلوب وحقوق العقول، فكانت الحياة أشبه بالحديقة الغنية التي تجمع شعابها بين حياض الأزهار والرياض ومآرب الأفاعي والصلال...

وأين نحن اليوم من أولئك الأسلاف؟

في مساجدهم رُويت طرائف الأشعار، ونوقشت مذاهب الزيغ بلا تحامل ولا إسراف، وفي بيوت أتقيائهم دونت أوهام القلوب والعقول،

وعلى ألسنة أصفيائهم جرت أحاديث الشك والارتياب، وبفضل ذوقهم الأدبي والفني عاشت أضاليل لها صلات بحيوات الآداب والفنون.

أمَّا عصرنا الذي أعرف وتعرف فهو عصر الرسوم والأشكال، وأخشى أن يمر بلا أثر ملحوظ في خدمة العقل والقلب والذوق.

ألا فأين الرجل الصالح الذي يقهرك روحه على التزام حدود الدين؟

وأين المفكر الذي يقهرك إخلاصه للفكر على التزام حدود العقل؟

وأين الأديب الذي يحدثك عن نفسه فتشعر بأنه صادق كل الصدق؟ ومن أجل هذه الرخاوة الفكرية والأدبية والدينية فترت حماسة الناس للفكر والأدب والدين، وأصبحت القلوب مثل حال التراب المقتول.

وهنا أجد الجواب عن سؤال أيها الأستاذ الجليل.

أنا أتحدث عن الحب بصفة جدية وأتعقب أخباره وآثاره في كل ما أرى وما أسمع، وآية ذلك أني لم أنته ولم أنزجر بعد أن رأيت غضبك في جريدة السياسة يوم صدر كتاب «مدامع العشاق» وقد قلت: إنه يحرض على الشهوات، سامحك الله وغفر لك.

وأنا أجدُّ في كل شيء، أجد في الصداقة والعداوة، وأجد في الشك واليقين، وليس أمامي مجال للمزاح، وكيف يتسع وقتي للمزاح وما قضيت يومًا خاليًا من الشقاء بالدنيا والناس؟

فما أرضاك عني فهو حق، وما نفرك مني فهو حق، وما خصصتك بغضبي ورضاي إلا لأني أعرف أنك تعاني من فرح الحياة وحزن الحياة

بعض ما أعاني... وأنا موقن بأنك تفهم عني ما أريد؛ لأنك تعرف من سريرتي ما لا يعرف سواك.

فما رأيك في الحب؟

ألا ترى أنه عاطفة تستحق أن نتأثر بها في جميع المسالك؟

وإذا سكتنا عن تشريع عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن ندعي النيابة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء؟

وهل يرضيك أن نصير إلى ما صار إليه من يختارون المحفوظات لتلاميذ المدارس، وقد تحاشوا جميع الأشعار التي تفصح عن أوطار القلوب؟

لو كان جميع المعاصرين من «العارفين بالله» لخف الأمر وهان، ولكن معاصرينا من الأساتذة يسمعون حديث الحب في المذياع، ويرون آثاره على الشاشة البيضاء، وفيهم من يتمنى لو سارت أشعاره بين أغاريد أم كلثوم وعبد الوهاب.

يجب أن تعرف أن أخاطب الدكتور طه حسين الذي نقل أروع أحاديث الحب عن أهل الغرب، والذي يحاول أن يطبع الجمهور المصري على تذوق الموسيقى الأوربية؛ لأنها في رأيه من أصلح الأدوات للتعبير عن العواطف والأهواء.

والأوربيون الذين تعرفهم لا يرون الحب من المزاح، وإنما يرونه عاطفة أصيلة تنقل القلب من مكان إلى مكان، وتسبغ عليه أثواب الصحة والعافية، وتشريح عاطفة الحب هو عندي باب لتربية العواطف.

تربية العواطف؟

أعوذ بالله من الجهل بأخلاق زماني، ومن التعرض لسفاهة الأقاويل وشناعة الأراجيف. نعم، أنا أدعوا إلى الاهتمام بتربية العواطف... وإهمال العواطف ستكون له آثار أيسرها رياضة الشبان على رذيلة «عدم الاكتراث» وهي أقبح الرذائل وأشدها تأثيرًا في قتل حيوية الشعوب.

وهل تستطيع القول بأن الرأي العام عندما يحس هذه المعاني؟ وما الرأي العام؟

أليس صدى لآراء الباحثين والمدرسين، وهم عندنا قوم هيابون خوافون يرون الحديث عن العواطف من فضول القول.

وضمور العواطف هو الذي قتل الشاعرية في مصر، وهو الذي جعل المصريين أقل الناس إحساسًا بمعاني الوجود.

وإلا فحدثني عما أقيم على شواطئ النيل من ملاعب، وما أقيم فوق عبابه من سهرات يغنَّى فيها الشعر ويرقص الخيال؟

هل عندك نبأ عن حدائق القناطر الخيرية؟

وهل سمعت أن إحساس المصريين بالحياة حمل بعض الشركات على أن تنشئ فندقًا هناك؟

ولم تقام الفنادق في تلك الضاحية السحرية وليس فيها رجل يشوقه قضاء الليل وهو يسمع هدير النيل في شهر آب؟

وهل عندك نبأ عن حديقة الأزبكية؟

ألم تسمع أن حديقة الأزبكية ليس فيها مكان تشرب فيه فنجانًا من القهوة أو الشاي إذا بدا لك أن تقضي فيها ساعة أو ساعتين لمحاسبة نفسك أو مداعبة خيالك؟

ويتحدث الناس في هذه الأيام عن بحيرة قارون بمناسبة زيارة جلالة الملك لإقليم الفيوم، فهل تعرف أنه لا يمكن قضاء ليلة بجوار تلك البحيرة إلا في فندق أقامه هناك أحد الألمان؟

وهل سمعت أو سمع أحد من أصحابك أن شاعرًا مصريًا قضى ليلة أو بعض ليلة وهو يداعب سمكات تلك البحيرة؟

وما رأيك في «بحيرة التمساح»... هل سمعت لها خبرًا في قصيدة أو رسالة أو كتاب لأديب من أهل هذه البلاد؟

وهل خطر لك أن تقضي ليلة بجوار تلك البحيرة عساك تعرف شيئًا من أخبار مدينة الإسماعيلية؟

ولا موجب لتذكيرك بالأقصر وأسوان: فالناس جميعًا يعرفون أن الأجانب هم الذين تشوقهم تلك المغاني، وإليهم يرجع الفضل في إقامة أسواق الحياة بتلك المناسك، على أيامها ولياليها أطيب التحية وأزكى السلام!

وما لي أبعد بك فأنقلك إلى تلك البقاع النائية؟

هل اتفق لك أن تلقي درسًا من دروسك بين الأشجار التي تحدق بكلية الآداب؟

وهل فكر أستاذنا لطفي باشا في محادثة الجامعة عن أرسطاليس تحت الدوح كما كان يصنع فلاسفة اليونان؟

ذلك يشهد بأن إحساسنا بالحياة يكاد يكون في حكم المفقود، فما رأيك في الدعوة إلى الطب لهذا المرض العضال؟

كيف نطب لهذا المرض ونحن نرى الحديث عن الحب ضربًا من المزاح؟

كيف وقد تهيبت تقديم كتاب «ليلى المريضة في العراق» إلى محرري الجرائد المصرية؛ لئلا أقرأ لأحدهم كلمة تؤذيني بلا موجب معقول.

وما رأيك إذا حدثتك بأني عجزت في مصر عن بعض ما قدرت عليه في العراق.

كنت أحب أن أؤلف كتاب عن «ليلى المريضة في الزمالك» أفصل به أسرار المجتمع وسرائر القلوب في هذه البلاد بطريقة روائية تفيض على شبابنا روحًا من أرواح الوجدان؛ ولكني خشيت ملامة الفارغين من أشباه الأدباء.

فهل أرجو أن تضر قلمك بما تهيب به قلمي؟

لقد وضعت لك الخطة بكتاب «ليلى المريضة في العراق» فأرني كيف تصنع وكيف تصور عصرك وزمانك كما صورت عصري وزماني، نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم، نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية والسياسية.

فهل أنت مستعد لاقتحام هذا الميدان؟

نحن نفكر في خلق عصبية أدبية تعلو على العصبية الحزبية، ولن نصل إلى ذلك إلا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات العقول، وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس، وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا إلى منازل الحكماء ويطمعنا في الخلود.

ليتني أستطيع مصارحتك بكل ما أريد في خلق الحيوية الأدبية والفنية.

وكيف أستطيع وأنت كثير التلوم والتعتب ولا يصل إليك الرأي الصريح إلا مشوبًا بتهمة التحامل عليك.

أنت على كل حال من ذخائرنا الأدبية، وأنا أقبلك على علاتك كما تقبلني على علاتي.

فهل يكون من الفضول أن أصارحك بأنك لا تقبل على حياة الوجدان إلا وأنت خائف مع أنك قوي العبارة في الإفصاح عن دسائس نفسك، ونوازع قلبك؟

وما خوفك وقد استقام لك مصيرك الأدبي وصار اسمك من أشهر الأسماء؟

وما خوفك من الاعتراف بأن عاطفة الحب تستحق التشريح؟

وما الذي يدعوك إلى الاحتراس حين أقترح عليك تأليف كتاب عما أحس شعراء العرب من النوازع الوجدانية؟

أتخاف أهل الجمود؟

اطمئن يا سيدي الدكتور، فهم في شغل عنا بمصايرهم الدنيوية، ولن يفرغوا لنا إلا بعد أن نفرغ من إعلام الناس بما نريد من شرح أوهام العقول والقلوب.

أمَّا بعد: فأنا أعلن عتبي عليك لأنك ابتسمت ابتسامة فيها طيف من الاعتراض على اهتمامي بتشريح عاطفة الحب، وأصارحك بأن هذا مذهب أدبي سأحرص عليه مادمت أملك القدرة على تشريح العواطف والأحاسيس.

فافتح قلبك يا سيدي الدكتور لوحي الحياة والحب، واعلم أن الابتسام الصادق هو أثمن ما يملك الرجال.

وقد شاءت المقادير أن أستطيع مقابلتك في كل يوم بعد أن صرت معنا في وزارة المعارف.

وسأحولك إلى حزبنا؛ حزب الأخوة الأدبية الذي يرى أقطار العربية جسمًا واحدًا؛ إذا شكا منه عضوٌ أسعدته سائر الأعضاء بالسهر والأنين.

وستريك الأيام بعد قليل أن الميزان الذي كنت احتكمت إليه في تقدير العداوات والصداقات لم يكن أدق الموازين... والله المسئول أن يديم عليك عافية القلب وشباب الروح.

***

كتاب الإمتاع والمؤانسة
مصالحة الأستاذ أحمد أمين

لم يبق شك في أن الأستاذ أحمد أمين غضبان بسبب المقالات التي تجاوزت العشرين[١]، والتي حرضت عليه بعض من خاصموه في مجلة (المكشوف) وأغرت بعض «أنصاره» في العراق، وأخرجته عن وقاره فشتمنا في مجلة (الثقافة) بأبيات جاهلية، سامحه الله وعفا عني.

وأقول اليوم: إني استوحشت مما صنعت -والاعتراف يهدم الاقتراف- فمن واجبي نحو نفسي أن أقدم إلى الأستاذ أحمد أمين عملًا صالحًا يعطفه عليَّ، ويرده إلى سابق عهده، فيبدأني بالتحية حين يراني، ويذكرني بالجميل كما كان يصنع قبل أن أجترح في نقده ما اجترحت، وليس من الكثير أن أرجو عفوه، فقد عفا «أخٌ» له من قبلُ!

والأستاذ أحمد أمين يعرف أني رجلٌ ممتحن بعداوات الرجال، وقد عانيت من ذلك مصاعب لو صادفت رجلًا غيري لدحرته في أقصر وقت، فمن حقي عليه وهو صديقي وجاري، وزميلي كان في الجامعة المصرية، أن يتجاوز عن سيئاتي، إنه -ولله المثل الأعلى- غفورٌ رحيم!

ولكن كيف أتقرب إلى الأستاذ أحمد أمين وهو فيما يظهر أقسى من الجلمود؟

---

(١) يقصد مقالاته تحت عنوان «جناية أحمد أمين على الأدب العربي» التي صدرت في كتاب تحت هذا العنوان، طبع وتوزيع دار الجبل.

أتقرب إليه بالعلم الذي يقول: إنه حارسه وراعيه، فأقدم إليه ملاحظات على تصحيح كتاب (الإمتاع والمؤانسة)[١] الذي نشرته لجنة التأليف بتصحيح الأحمدين؛ أمين والزين، كما صنعتُ يوم صحح هذان الفاضلان (ديوان حافظ إبراهيم)[٢]، فقد استدركت على الجزء الأول عشرين غلطة جوهرية اعترف بها الأستاذ أحمد أمين، ثم صرفتني الشواغل عن النظر في الجزء الثاني، ولعلي أرجع إليه بعد حين.

ويجب قبل الشروع في سرد ملاحظاتي أن أقدم أصدق التحية إلى المصححين الفاضلين، فقد بذلا في إخراج الجزء الأول جهدًا لا يعرف قيمته غير من عانى المصاعب في تحقيق بعض النصوص المخطوطة من الأدب القديم، جزاهما الله خير الجزاء.

ويجب أيضًا أن أنبه القراء على واجبهم في اقتناء هذا الكتاب، فهو تحفة أدبية قليلة الأمثال، ورواج مثل هذا الكتاب قد يشجع لجنة التأليف والترجمة والنشر على متابعة السير في هذا الطريق؛ فتنشر من ذخائر الأدب القديم ما يعجز عن نشره الأفراد.

وقد يلاحظ بعض القراء أن الكتاب غالي الثمن، ولكنهم سيعرفون أن ثمنه معتدل حين يذكرون أن أمثال هذه الكتب تستوجب في تصحيحها ونشرها كثيرًا من التكاليف.

وأعود إلى الموضوع فأقول:

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: كتاب لأبي حيان التوحيدي، حققه ونشره الأستاذ أحمد أمين.

(٢) صدر هذا في كتاب (حافظ إبراهيم) بقلم زكي مبارك للكاتبة كريمة زكي مبارك.

كان في النية أن أتعقب الجزء الأول كله، وهو يحتاج إلى عدة مقالات؛ ولكن كثرة الشواغل حالت دون ذلك، فوقفت عند «الليلة الثامنة» وهي من عيون الكتاب.

١- جاء في ص١٣٢ «طريقة الربانيين» ويقول المصححان الفاضلان: إن الأصل «الديانين» ولكنهما لم يجداها في كتب اللغة بهذا المعنى.

ونقول: إن الديانين جمع ديان وهو الناسك، وهي كلمة قديمة في اللغة العربية، ولها شواهد في كتب التصوف، وهي كذلك من الألفاظ المألوفة عند التوحيدي، وقد استعملها في مواطن كثيرة سأدل عليها إن وجدت ما يوجب ذلك.

والديان بمعنى الناسك كلمة عرفها الأدب الحديث: فقد رأيتها في مقال نشره الدكتور طه بك حسين في جريدة السياسة في صيف سنة ١٩٢٦، وهو يقص حكاية ديكارت في السخرية من المرحومين علام سلامة ومحمد عبد المطلب.

٢- جاء في ص١٢٣: «وإنما بودكم أن تشغلوا جاهلًا» ويقول المصححان الفاضلان: إن «بودكم» هي في الأصل «قولكم».

ونقول: إن عبارة الأصل هي الصواب، ويؤيد هذا أن المؤلف قال قبل ذلك: «لأنكم لا تقولون بالكتب» ولم يفطن المصححان لغرض المؤلف فأثبتا في مكان «لا تقولون» عبارة «لا تفون» وبهذا ظلما المؤلف في صفحة واحدة مرتين.

٣- وجاء في ص١١٩: «إذا حضرت الحلقة استفدت». ويقول المصححان الفاضلان: إن «الحلقة» هي في الأصل «المختلفة» ولم يفهما معناها فغيراها إلى «الحلقة».

ونقول: إن «المختلفة» كلمة يريدها التوحيدي. فمن الظلم تحويلها من وضع إلى وضع، والمختلفة: هم طلبة العلم الذين يحضرون الدرس، وقد وردت بهذا المعنى في ص١٢٩ إذ يقول المؤلف: «وأحضر بركة على المختلفة».

٤- وفي ص١١٢: «فإن علم العالم مبثوثٌ في العالم بين جميع من في العالم».

ونقول: إن السياق يوجب أن نقرأ «فإن علم العالِم» بكسر لام العالم لا فتحها.

٥- وفي ص١٠٩ يقول المصححان الفاضلان: إن «المصاع» من صاع الشجاع أقرانه إذا حمل عليهم، وهذا خطأ في التصريف والصواب: أن «المصاع» مصدر ما صع بمعنى جالد، فهو من فصل الميم لا فصل الصاد، والسرعة هي التي أوقعت المصححين الفاضلين في هذا الغلط.

٦- وفي ص١٠٨: «بما حويناه من المنطق» ويقول المصححان الفاضلان: إن «حويناه» هي في الأصل «جربناه».

٧- وفي ص١١٥: «وإذا لم يكن لك بد من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة». ويقول المصححان الفاضلان: إن «الترجمة» هي في الأصل «التجربة».

ومن هنا نفهم أن المصححين الفاضلين ظلما المؤلف في موطنين: فالتجربة كلمة مقصودة يريدها التوحيدي بالذات، فيجب في الطبعة الثانية أن تبقى كلمة «جربناه» في ص١٠٨ وكلمة «التجربة» في ص١١٥ فتصير العبارة الثانية هكذا:

«وإذا لم يكن لك بد من قليل هذه اللغة من أجل التجربة، فلا بدَّ لك أيضًا من كثيرها من أجل الترجمة».

٨- وفي ص١١١: «فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية».

ويقول المصححان الفاضلان: إن «متحولة» هي في الأصل «مملوكة».

ونقول: إن الأصل صحيح وتغييره ليس إلا تحكمًا في توجيه غرض المؤلف.

٩- وفي ص١١٠: «ليس كل ما في الدنيا يوزن، بل فيها ما يوزن وفيها ما يكال وفيها ما يُذرع وفيها ما يُمسح وفيها ما يُحرز». ومن كلام المصححين الفاضلين نفهم أن أصل عبارة التوحيدي: «وفيها ما يمسح ويحزر» وأنهما زادا عبارة «فيها ما».

وبذلك نعرف أن دقة المؤلف في التعبير خفيت على المصححين الفاضلين، وتعبير التوحيدي جيد جدًّا؛ لأن ما يُحرز داخل فيما يمسح فلا موجب لتخصيصه في التفريع.

١٠- وفي ص١١١: «الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة».

ويقول المصححان الفاضلان: «ورد في الأصل بعد قوله «إلا» جيم وألف وذال، وهي زيادة من الناسخ والصواب حذفها».

ونقول: إن المصححين الفاضلين لم يفطنا إلى أن كلمة «جاذ» محرفة، وصوابها «مجاز» ويريد المؤلف أن يقول: إن اللغة مجاز؛ أي معبر نصل به إلى المعاني والأغراض.

١١- وفي ص١٠٩: «الأسماع المصيخة والعيون المحدِقة والعقول الحادة والألباب الناقدة».

ومن كلام المصححين الفاضلين تعرف أن «المصيخة» كانت محرفة في الأصل، وأقول: يجب أن تصير «مُصغية» ليتم التزواج بينها وبين «مُحْدِقة» ومن كلامهما نفهم أن العقول الحادة هي في معجم الأدباء العقول الجامدة.

وأقول: إنَّ الحادة لا تتزاوج مع الناقدة فيحسن أن نقول: «العقول الصامدة، والألباب الناقدة» والصمود له معنى يتسق مع مراد المؤلف ومع أسلوبه في إيثار الازدواج.

١٢- في ص١٠٦: «ومتى اتفق إنسان بهذه الحلية». ويقول المصححان الفاضلان: لعله الجبلة.

ونقول: إن «الحلية» معناها الصفة، ولها شواهد في آثار القرن الثالث والرابع.

١٣- وفي ص١١٥: «إنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها».

ونقول: إن «وصفها» محرفة، والصواب «رصفها» وهي كلمة معروفة في اصطلاحات الإنشاء.

١٤- وفي ص١١٦: «فلم يبق إلا أحكام اللغة» والسياق يوجب أن نقرأ «إحكام اللغة».

١٥- وفي الصفحة نفسها: «قبل واضع المنطق» والصواب «قبل وضع المنطق» وقد وردت كذلك في موطن آخر من الحوار بين متى والسيرافي (انظر ص١٢٦).

١٦- وفي ص١١٧: «فهذا جهلٌ من كل من يدعيه، وخطلٌ من القول الذي أفاض فيه». والقول: صوابها القائل، كما يشهد السياق.

١٧- وفي ص١١٩: «فأما وهو يريغ أن يبرر ما صح له بالاعتبار والتصفح». ومن كلام المصححين الفاضلين نعرف أن «يبرر» أصلها «يزن».

ونقول: إنهما أخطآ التصحيح؛ لأن «يزن» هي الكلمة التي يريدها المؤلف، وهو قد نص عليها في بعض المواضع، وكلمة (يبرر) بهذا المعنى لا تعرفها اللغة.

١٨- في ص١٢٧: «فاعتقد فيه أنه [صحيح وهو] مريض العقل».

ويقول المصححان الفاضلان: إنهما زادا عبارة «صحيح» وهو وتلك زيادة يضيع بها غرض المؤلف؛ لأنه يريد أن يقول: إن الكندي اعتقد فيه أنه مريض العقل حين جاز عليه التلبيس.

١٩- وفي ص١٣٤ بـ«بلل الريق وغزارة النفث»، والصواب: حرارة النفث.

٢٠- وفي ص١١٦: ضبط المصححان «مسكويه» بفتح الميم، وكذلك صنعا في ص٣٢، والصواب مِسكويه بكسر الميم، وقد نص عليها صاحب القاموس، وقال: إنها على وزن سيبويه.

٢١- وفي ص١٣٧: «ليس للعقل من شعره منال، ولا له في قرضه مثال». ومن كلام المصححين الفاضلين نعرف أن «قرضه» هي في الأصل «عرصته» وأنا أفضل أن تبقى هذه اللفظة كما وردت في الأصل، ثم نقول: «مثال» في مكان «منال» ونقول «مجال» في مكان «مثال» فتصير العبارة هكذا:

«ليس للعقل من شعره مثال، ولا له في عرصته مجال». وهي أدل على المراد مما اختاره المصححان الفاضلان، أجزل الله لهما الثواب.

٢٢- وفي ص١٣٨: «وكان عجبي منك دون عجبك مني، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك».

وكلمة «دون» صوابها «فوق» وتنقل الواو فتصير العبارة: «كان عجبي منك فوق عجبك مني، ولو تقارعنا على هذا لفلجت عليك».

٢٣- وفي ص١٣٩: «لكنه يقرض فيحزّ، ويشمُّ فيهز» وكلمة «يشمُّ» من الغلط القبيح، والصواب «يَسِمُ» من الوسم وهو الكي، بدليل قوله بعد ذلك «ويجرح فيُجهز».

٢٤- وفي ص١٤١: «وأما النصيبي فدقيق الكلام» و«دقيق» خطأ، والصواب «رقيق» ورقة الكلام هي ضعف الدين بدليل قول المؤلف في النصيبي: «يشك في النبوات كلها» والعقيدة الصحيحة يسميها التوحيدي «الدين الثخين» انظر ص١٣٣.

٢٥- وفي الصفحة نفسها: «إلا أنه يأتي لابن عباد في سمته ولزوم ناموسه حتى خف عليه».

والسياق يوجب أن نقول: «تأتي» في مكان «يأتي» والتأتي هو التلطف.

٢٦- وفي ص١٤٢: «إن كثيرًا من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجون ولا يناظرون ولا يُكرمون ولا يفضَّلون، خيرٌ من هذه الطائفة».

ومن كلام المصححين الفاضلين نعرف أن «لا يُكرَمون ولا يفضَّلون» أصلها «يلزمون ولا يتفضلون».

وأقول: إن الصواب: «ويُلزمون ولا يفصِلون» والمعنى أنهم يُلزمون الحجة ولا يستطيعون الفصل، وهو الحُكم والتمييز بين دقائق الأغراض.

٢٧- وفي ص١٤٣: «وتَحِيلَ الحالَ به عند خوضك وفيضك».

كذلك ضبط المصححان عبارة «تَحِيلَ الحال» والمعنى غير واضح، وأنا أحب أن تكون «وتُجيل المحال».

والمحال: بفتح الميم هو الحيلة، وهو يتسق مع المراد.

***

أمَّا بعد: فهذه سبع وعشرون ملاحظة قيدناها عند قراءة «الليلة الثامنة» من كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، وفي هذا الفصل نفسه أشياء سكتنا عنها لأنها قليلة الأهمية.

وهذه الملاحظات خليقة بأن تصلح ما بيني وبين الأستاذ أحمد أمين، فإن لم تكف للإصلاح فسأراجع الكتاب كله ولكن أين الوقت؟

الوقت عند صديقنا الدكتور بشر فارس، وهو قد عزم على مراجعة كتاب التوحيدي، وأنا أنتظر أن يكون بحثه أوفى وأشمل؛ لأنه يملك من الفراغ ما لا أملك.

***

بقيت كلمة عن الأستاذ أحمد الزين؛ وهو المسئول الأول عن تصحيح هذا الكتاب:

ألا يرى هذا الصديق أن بعض التصحيحات غلب عليها الارتجال؟

وإلا فكيف جاز أن يكون المصاع من صاع؟ وكيف جاز أن يكون الديان بمعنى الناسك أمرًا غير معروف؟

وأمثال هذه الأغلاط تشهد بأن الأستاذ أحمد أمين لم يشترك في التصحيح بطريقة جدية؛ لأن من كان في مثل علمه وفضله لا يخطئ في هذه البديهيات.

***

وفي ختام هذا البحث أعتذر للقراء من محادثتهم في شئون لا يدركها غير من يملك نسخة من كتاب الإمتاع والمؤانسة، فلولا الثقة بأنهم لن يَضِنُّوا على أنفسهم بنسخة من هذا الكتاب لطويت عنهم هذه الملاحظات.

وذلك إعلان ننشره في «الرسالة» بالمجان مراعاةً للتضامن الأدبي بين المؤلفين والناشرين، فهل يكون القراء عند الظن الجميل فيُقبلوا على اقتناء هذا الكتاب؟

إن ثمنه لا يزيد على ثمن أربع عُلب من السجاير المصرية، فأين من يفكر في متعة العقل كما يفكر في مُتعه الحِس؟ سارعوا إلى اقتناء الكتب الجيدة لتعرفوا أن العرب لهم أذواق وعقول.

مجلة الرسالة ٣٩/١٢/١١

الحرية الأدبية

فيما كتب الأستاذ الزيات والدكتور عزام عن «البلايا التي تكابدها البلاغة في هذا العصر» تذكيرٌ بغضبات ابن قتيبة في القرن الثالث، والجرجاني في القرن الخامس. وقد جاء هذا التذكير في الوقت المطلوب، جاء بعد انحراف قد يزعزع مركز مصر الأدبي في الشرق، إن لم تسنده الأقلام المصرية بأسندة متينة من الحق والصدق واليقين[1].

وأقول من جديد: إنه لا حياة للأدب في مصر إن لم تكن لأهله عقيدة أدبية؛ عقيدة يرحب صاحبها بجميع المتاعب في سبيل الأدب الصحيح، ولا يبالي أين يكون مصرعه ما دام على وفاق مع ملائكة الفكر وشياطين البيان.

والعقيدة الأدبية توجب أن نكون صادقين فيما نكتب وفيما نقول، بحيث يطمئن القراء إلينا كل الاطمئنان، وبحيث لا تخفى عليهم خافية من سرائرنا الفكرية، ولو جنحنا في التعبير إلى الرموز والتلاميح.

القارئ صديق -وإن لم يتعرف إلينا بصورة شخصية- وللصديق حقوقٌ أهمها اطراح الرياء، فمن العبث أن يخطب قومٌ وداد القارئ وهم لا يلقونه إلا مرائين.

والأصل في الأدب أنه تعبيرٌ طريف عن أغراض الحياة والأحياء. وإنما قلت: «تعبير طريف» لأبدد الشبهة التي تقول بأن الأدب هو تصوير

---

(١) مجلة الرسالة: ١٤/١٢/١٩٤٢.

المشاعر والعواطف بالصدق الذي يماثل صدق الصورة الشمسية، فالقارئ لا يفرح بأن الكاتب حدثه عما يجول في صدره بالحرف، وإنما يسره ويبهره أن يجد في تلك الصورة ألوانًا لم يلتفت إلى مثلها من قبل، على شرط أن لا يلويه التلوين عن الصدق، وعلى شرط أن يكون الجانب الطريف أظهر الجوانب في الأداء.

فأين نحن من هذه المعاني في هذا الزمان؟

من المحقق أن الأدب عندنا في ازدهار؛ ولكني مع ذلك أعاني ضروبًا من التخوف، فالجماهير في مصر لم تشعر إلى اليوم بأن الأدب صار قوتًا لا تطيب بدونه الحياة. ولم نسمع أن الجماهير مستعدة للمساعدة على نشر كتاب يعجز عن نشره أحد كبار المؤلفين. ولم نسمع أن كتابًا أعيد طبعه عشرين مرة في أشهر معدودات، كما يقع ذلك في بعض الممالك التي تعاني شهوات العقول.

فما أسباب هذا الخمود؟

أخشى أن أقول: إننا لم نصر كتابًا ولا مؤلفين بالمعنى الصحيح للكتابة والتأليف.

أخشى أن أقول: إننا عجزنا عن خلق الجاذبية الأدبية، وسيحكم علينا التاريخ بما لا نريد، فسيقول أقوامٌ: إن مصر عانت زمنًا لم يعرف أدباؤه كيف يرفعون البراقع عن الأقلام، ولم يفكروا في رفع الأمية الفكرية عن عقول القراء.

أعوذ بالله من بعض ما أرى وبعض ما أقرأ وبعض ما أسمع!

وبالله أستعيذ من زمن تضعف فيه الأبوة الروحية؛ أبوة الباحثين والمفكرين! ومع هذا فالأمة المصرية هي هي لم تتغير ولم تتبدل، الأمة التي تستمع كل قول، وتستجيب لكل نداء، ولم يَفْتُر نشاطها الذهني في أي وقت، ولكن أين من ينتفع بالحيوية المكنونة في ضمير الأمة المصرية؟

انتفع السياسيون من أمثال: مصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول؛ لأنهم جاهدوا وناضلوا وكافحوا، ولأنهم حددوا أهدافهم تحديدًا لا يتطرق إليه الارتياب، ثم رحبوا بجميع المتاعب في سبيل تلك الأهداف.

فماذا صنع الأدباء ليسيطروا بالقوة الروحية، كما سيطر أولئك بالقوة السياسية؟

قد يقال: إن الوطنية وترٌ حساس، فهي السر في نجاح أولئك الرجال.

وأقول: إن النزعة الإنسانية أقدم وأعمق من النزعة الوطنية، فلو جاهد الأدباء جهاد الصدق لكان لهم في أمتهم تأثيرٌ لا يصل إليه كبار الوطنيين، ولكان من السهل أن تكون مبادئهم شرائع يعتصم بها السياسيون.

وأعجب العجب أن يكون في الأدباء من يطلبون الاستقلال لأمتهم ولا يطلبونه لأنفسهم، كالأدباء الذين يعيشون تحت وصاية الأحزاب السياسية راضين وادعين ناعمين، كأنهم ظفروا بكنوز قارون، وكأن آلهة الفن هي التي ألهمتهم ذلك المذهب من مذاهب المعاش، مع أن القلم أكبر وأعظم وأشرف من أن يتشوف صاحبه إلى الاستظلال بظلال الأحزاب.

لا عيب في أن يكون للأديب حزب ينتمي إليه إذا اقتنع بالتحزب في سبيل القومية. ولا عيب في أن تكون للأديب مطامع سياسية، ولكن العيب كل العيب أن يكون الأدباء ذيولًا تجرجرهم التقلبات الحزبية، وتدوسهم سنابك الأهواء.

إنَّ جهاد مصر الأدبي لا يقل عن جهادها السياسي، فقد استطاع فريق من أدباء مصر أن يرفعوا اسم وطنهم في الشرق؛ ولكنهم مع الأسف عجزوا عن رفع اسم الأدب في وطنهم؛ لأنهم غفلوا عن واجب المصابرة تحت الراية الأدبية، واكتفوا بالتغني تحت الراية الوطنية.

ألم أقل لكم: إن الأديب ليس أجيرًا للوطن ولا أسيرًا للمجتمع؟

وما قيمة الوطن إن لم يفرح بأن ينبغ فيه المفترعون لأبكار المعاني؟

في القسم المصري بمتحف اللوفر في باريس تمثالان ناطقان: تمثال الفلاح المتربع تحت الشمس وهو يتذوَّق السكون والخمود، وتمثال الكاتب المتربع وهو مهمومٌ يستعد للإنشاء. وتلك صورة مصر في القديم والحديث، فمن أبنائها من يفرح بالنعيم البليد، ومن أبنائها من يفرح بالشقاء السعيد. والأشقياء بالمعاني هم السعداء، يوم يوضع للسعادة تعريفٌ صحيح.

ألم يأن للأدباء أن يعرفوا واجبهم نحو الأدب؟

ألم يأن للزمن أن يسمح بأن تقوم في مصر دولة أدبية لا تعرف غير الصدق في البيان عن أوهام الأهواء وأحلام القلوب وأوطار العقول؟

أمن المستحيل أن يقول أديبٌ: «أنا» في هذه البلاد؟

ألا يوجد فينا من يتوكل على الله وحده ليملك الغنى عن الناس، فيكتب ما يكتب ويقول ما يقول في صراحة وإخلاص؟

عذرت من عاشوا في زمان الظلم، فما عذر من يعيشون في هذا الزمان؟

إن حرية التفكير مكفولة للجميع، على شرط السلامة الفكرية، فما الذي يوجب أن يكون الأديب إمَّعةً لا ينطق أو يصمت إلا وفقًا لبعض الموحيات الأجنبية عن جو العقل والروح؟

وما الموجب لأن يتفاضل الأدباء بالقدرة على الرياء، وهو سناد المهازيل، وعماد المعاليل، ودعام المناخيب؟

لقد وُضع الورق في التسعيرة الجبرية قبل أن يوضع الفُول، ومع هذا لا يفهم ناس أن قوت العقول يسبق قوت البطون!

إنَّ الأدب الكاذب ينفع، فكيف يضر الأدب الصادق؟

والأدباء المستعبدون يفلحون، فكيف يخيب الأدباء المستقلون؟

جرِّبوا الصدق مرة واحدة، يا أدباء هذا الزمان، وحاولوا مرة واحدة أن يكون لكم وجودٌ منزَّه عن التبعية، ولو كانت في أشرف الأوضاع؛ ليصح لكم القول بأنكم من دعاة الحرية والاستقلال.

إنَّ محنة الأدب في هذا العصر محنة عاتية، وهل توجد محنة أقسى من محنة العبودية؟ ولأي سبب؟ للقوت الذي لا يبخل الله به على ضعاف النمال!

إن الأديب المصري لم يُخلق بعد، الأديب الذي يستوحي نجوم السماء لا نجوم الأرض، الأديب الذي لا يخاف الجوع؛ لأن له زادًا من الحب والنسيم، الأديب الذي لا يخشى التوحد؛ لأن التوحد هو أنس الأسود.

التصوف خُلق أول مرة في مصر، في عهود سبقت عهود الفراعين. عنا أخذ الناس معاني الروحية، فهل يعاب علينا أن ندعو إلى الصوفية الأدبية؟

ولكن أين الأديب؟ أين لا أين، فقد طوقت المنافع ألباب الأدباء في هذا الزمان؟!

إن وُجد الأديب المصريُّ المنشود فسيكون المرجع لأقطاب السياسة وأعيان المال؛ لأن الأدب هو الميزان لفهم مطالب الحياة وحقائق الوجود.

وهنا تظهر إحدى الدقائق الروحية: فالميزان لا يستفيد مما يزن، وإنما يستفيد الوزان، فيا أدباء مصر كونوا موازين لا وزَّانين.

آه ثم آه!!

إنَّ الذي يملك بعض المنافع في هذه البلاد يعتز ويستطيل، فكيف يجوز لحامل القلم أن ينسى نعمة الله عليه فيتمسح بهذا الركن أو ذاك؟

وما الذي يمنع من أن نجرب حظنا مع الله، وقد جربنا الحظوظ مع الخلائق؟

لقد عفا الله عن سفهاء الأدب فأورثهم الخلود، برغم ترديهم في هوَّة التزلف إلى الوزراء والأمراء والخلفاء.

قال أبو نواس في مدح الأمين:

علقتُ بحبلٍ من حبال محمد أمنتُ به من طارق الحدثانِ

فغضب الله عليه وعلى الأمين وأوردهما موارد البلاء.

واعتز البحتري بصحبة المتوكل فضاع الأول وهلك الثاني.

أنا أدعو الأدباء إلى التخلق بأخلاق الصوفية... هل تذكرون بعض مذاهب الصوفية؟

اسمعوا هذا الحديث:

انتفع الصوفية بسماحة الإسلام، وهو دينٌ يأبى أن يكون بين المسلم وربه وسيط؛ فقرروا أنهم أرفع من الأنبياء، وهذا كفرٌ بظاهر القول؛ ولكنه في الجوهر غاية الإيمان، لأن المهم أن تصحَّ الصلة بصاحب العزة والجبروت، والأنبياء عباد الله قبل أن يكونوا مرسلين وبعد أن كانوا مرسلين، وهم أشرف من أن يدَّعوا مشاركة الخالق في طاعة المخلوق.

ومشكلة الأدباء أهون من مشكلة الصوفية، فنحن لا ندعوهم إلى الترفع على الأنبياء، وإنما ندعوهم إلى الترفع على الناس. ندعوهم إلى أن يعرفوا أنفسهم، ندعوهم إلى أن يعرفوا نعمة الله عليهم، ندعوهم إلى التنسك في سبيل المبادئ الروحية، ندعوهم إلى إنقاذ الأدب من مزالق الرياء.

فلان الذي يكتب في المجلة الفلانية عن الدين والأخلاق لا يستبيح المرور بشارع فؤاد ولا عبور جسر قصر النيل؛ مخافة أن يقول الناس: إنهم رأوه يسير هنا أو هناك.

فكيف تعبدون الله يا عبيد الناس، وهل يعبد الله من يخاف الناس؟

اطرحوا هذه البراقع. اطرحوها، اطرحوها، والله المسئول عن أقواتكم، إن ضاعت بسبب الصدق، فبينكم وبين الله عهدٌ وثيق، عهد يقضي بأن لا تكون العزة لغير الصادقين، والله لا ينقض الميثاق.

في كل ميدان فرصٌ ينفع فيها التمرين والتدريب، إلا الأدب، فهو موهبة ربانية لا تنال بجهاد الأنفس والأموال، ولا يظفر بها الملوك، إلا إن كانوا موهوبين.

تستطيع الشعوب أن تُجلس على عرش المُلك من تشاء، ولكنها تعجز عن خلق الأديب؛ لأن الأديب من إبداع المبدع الوهاب، ومن كرم الله على الأنبياء أن جعلهم فصحاء. وهل فات موسى أن يسأل الله تأييده بلسان هارون؟

الأدب سلطنة لا يجوز عليها الذل، والكفر بالأدب كفرٌ بحق الله في اصطفاء من يشاء، ثم ماذا؟

ثم يبقى القول: بأن إيمان الأدباء بالله ضعيفٌ ضعيف، فمازالوا يتوهمون أن لهم حوائج مع الخلائق، وهذا شِركٌ لا يرضاه الله ولا نرضاه.

أنا أعرف السر في انهيار دولة الأدب في جميع الأجيال، فقد كان الأدباء يجافون الله ويصافون الناس.

فيا أيها المبدع الأول والأخير لأنوار القلوب وأضواء العقول، تفضل فاجذبنا إليك، حتى لا نرى روحًا سواك، ولا نشهد إلا إياك، ولا نستجير بغير حماك، ولا نعتمد إلا عليك فما يعتمد على الخلائق غير الأذلاء.

الأدب خير ما أبدعتَ، فهو منك وإليك، ولك الحمد وعليك الثناء.

زكي مبارك

obeikandl.com